OSMANLI DÖNEMİNDE MISIR'DA MİZAH

Iyd Fethi Abdullatîf (*)

Özet: *Şüphesiz mizah ve eğlence, halkların kendileriyle, diğer düşünce, kültür ve değerlerini dile getirdiklerinden dolayı, tarih boyunca düşünürlerin, ediplerin ve yazarların dikkatlerini cezp etmiştir. Mizah, komedi, eğlence ve şakalaşma Mısır'lıların en hassas ve zor durumlarında kendini gösterir. Zira kişi, Mısırlıları sevinç ve sıkıntılı durumlarında mizaha başvurdukları, birbirleriyle şakalaştıklarını rahatlıkla görür. Ayrıca İslam, içerisinde aşağılama ve alay bulunmayan mizahı yasaklamamıştır. Zira Hz. Peygamber (s.a.v), Sahabe ve Selef-i Salih zaman zaman karşılıklı gülüşür ve şakalaşırlardı*

Anahtar Kelimeler: *Mısır, Osmanlı, mizah, eğlence, İslam*

Humor in Ottoman Egypt

Abstract: *There is no doubt that humor and laughter are both consider as subjects that attract the attention of writers and intellectuals through history, this is for the importance of humor and laughter in people's life as they express through humor and laughter their values, ideas and cultures. Humor was and still one of the most important characteristic of the Egyptians. As they have a passion to jokes that glow in their conversations in the most critical and embarrassed situations. You can find them laughing, mocking and make fun in adversity and prosperity alike. Islam does not forbid reasonably accepted laughing and joking that are free of immorality and vulgarity. The Prophet (PBUH) was laughing and joking and the Companions and the Ancestors were laughing and joking too.*

Key Words: *Egypt, Ottoman, Humor, Laughter.*

(*) Atatürk Üniversitesi İlahiyat Fakültesi

مقدمة

لاشك أن الفكاهة والضحك من الموضوعات التى جذبت اهتمام الكتاب والأدباء والمفكرين على مدى التاريخ ، وذلك لأهمية الفكاهة والضحك فى حياة الشعوب التى تعبر عن طريق الفكاهة والضحك عما بها من قيم وأفكار وحضارات .

وكانت الفكاهة وما زالت أهم ما يميز المصريين ، ففيهم شغف بالنكتة والنادرة التى تبرق فى أحاديثهم فى أحرج المواقف وأدقها ، وتجدهم وهم يضحكون ويسخرون ويتهكمون فى وقت الشدة والرخاء على حد سواء .

كما أن الإسلام لم ينه عن الضحك والمزاح المعقول المقبول الخالى من المجون والابتذال ، حيث كان النبى ρ يضحك ويمزح كما كان الصحابة والسلف الصالح – رضى الله عنهم أجمعين يمزحون ويضحكون ويتضاحكون ، فقد كثرت الكتابات والدراسات التى تدور حول هذا الموضوع، وأدرك الكتاب العرب أهمية الفكاهة والضحك ، لذا أكثروا من الحديث عنهما وبيان آثارهما ، ويعد الجاحظ أشهر هؤلاء الكتاب قاطبة ، ومن أشهر كتبه فى هذا المجال كتاب البخلاء الذى جمع فيه الكثير من القصص الطريفة والنوادر التى أظهر بها صورة البخلاء فى عصره وطريقة حياتهم وغير ذلك.

وقد اختصت بعض هذه الدراسات بعصور معينة وأزمان محددة ، ولكن كلما تعرضت إحدى هذه الدراسات للفكاهة فى العصر العثمانى ، نسبت هذه النزعة إلى ما أصاب تلك الفترة من ضعف سياسى واقتصادى وظلم اجتماعى ، غافلين ما كان فى هذه الفترة من أدب وشعر ونثر وفقه وفلسفة وغير ذلك من علوم ، ومتناسين ما كان فى هذه الفترة من قوة سياسية فى أكثر الأوقات ، فى كل المجالات السياسية والعلمية والأدبية والاقتصادية .

ـــ الفكاهة فى اللغة :

الفكاهة فى اللغة من التفكه والتفاكه والتمازح و المزاح والممازحة ، يقال : فكههم بملح الكلام ، أى : أطرفهم ، وداعبهم ومزح معهم ، والدعابة هى المزاح واللعب والمضاحكة ، وقد تكون بالتحكم والاستخفاف والاستهزاء والعبث ([1]) بذكر النوادر المستملحة التى يضحك منها

الناس وبها يسمرون .

* * * *

وقد عرفت النوادر قديمًا ، على شكلين : الأول : الأقاصيص التى تروح عن النفس أو التى يقصد بها غرض خلقى نبيل . والثانى : يراد بها أقاصيص فكهة قصيرة سخرية بحاكم أو معلم أو قاض أو بخيل ([2]) .

وكانت الرسائل الهزلية والمقامات أحدث أنواع أو أشكال الأدب الفكاهى منذ بدايات العصر العباسى ، وكانت الرسائل الهزلية أحد أدوات المضحك فى النوادر والملح منذ بدايتها ، إذ أخذ الكتاب الساخرون فى معارضة الرسائل الجادة بأخرى هزلية ([3]).

وكان للعرب أسمار وأحاديث ونوادر يحكونها فى لياليهم المقمرة ، ويتفكهون بها فى جلساتهم ، وانتشرت هذه القصص مع دخول الخيال فيها مع أخبار الفتوحات والحروب ، وتنبع هذه القصص من الحياة الجاهلية الأولى وأيام العرب وما بها من مغامرات وحروب ، والحياة فى صدر الإسلام وما بها من حروب وفتن وقصص حب ومغامرات ، والحياة فى العصر العباسى وما به من ترجمة عن الفرس والروم، واشتهر فى تلك الفترة الكثير من القصص الشعبية مثل قصة عنترة، وذات الهمة ، وسيف بن ذى يزن ، وحمزة البهلوان ، وقصص ألف ليلة وليلة ([4]) .

وإذا كانت النوادر تنقسم إلى قسمين الأول : النادرة التى حدثت بالفعل ، أو التى لها ظل من الحقيقة أو لها صلة بها ، والثانى النادرة التى لخُتُلِقت اختلاقًا ، ووضعت من نسج الخيال ، بغرض الإضحاك

([1]) السخرية فى الأدب العربى الحديث (عبد العزيز البشرى نموذجًا) للدكتورة سها عبد الستار السطوحى .

([2]) مصر والشام للدكتور شوقى ضيف : ص 477

([3]) المضحك وتطوره فى النثر العباسى حتى نهاية القرن الرابع ، جمال عبد الغفار إبراهيم بدوى ، ص 65

([4]) السابق : ص 57

أو السخرية ، والتشهير بأحد الأشخاص ، مع صعوبة تحديد هذا الأمر ([5])، فقد كان للأدب العربى فى العصر العثمانى نصيبه من أدب النوادر والفكاهة ، وبرع كثير من الشعراء والكتاب فى هذا النوع من الأدب القائم على الأحداث الحقيقية ، وعُرف بعضهم بالهزل والفكاهة ، كالجنيد الدمشقى ، الذى عرف بهزلياته النثرية ، وقد استطاع المحبى فى خلاصة الأثر من رصد الكثير من هذه الهزليات خلال ترجمته لهذا الأديب البارع ، فيقول عنه :" كامل الأدوات ، حسن الآداب ، لطيف المطارحة ، حلو الحديث ، صاحب نكات ونوادر ورواية واسعة فى الأخبار والأشعار والأحاديث وعمَّر كثيرًا ، ولقى أساطين العلماء وجالسهم ، والتقط من فوائدهم ، وروى عنهم ([6]) .

وقال عنه أيضًا : " وعاشر الوزراء ، ونادم الكبراء ، وتردد إلى الأعيان ، وهام فى الغيد الحسان ، حتى صار شيخ الغرام ، ونقيب الوجد والهيام ، فهو صغير كبير ، وكبير صغير ، إذا خالط الكبار يكبر ، وإذا خالط الصغار يصغر ، محبوب قلوب الأنام ، له فيها التصرف التام ، لا يراه أحد من الناس إلاَّ يود أن يكون له من الندماء والجلاس ، يحب التلاق ، ويكره الفراق ، لا يودع مسافرًا ولا يعود مريضًا ، ولا يشيع جنازة إلاَّ نادرًا ، وكانت أوقاته مستغرقة فى النـــزهات " ([7]).

وكان بعضهم يجعل من سوء الحال مادة للاستهزاء بالآخرين ، كما حدث فى يوم من الأيام عندما اجتمع الجنيد مع الكريمى واستنشده بعض من الأبيات التى هجاه بها ، فلما أتم قراءتها نظر إليه بنظر المستهزىء به ، ولم يزده على أن قال له : أين الأم المشفقة التى تبكى عليك. ويعلق المحبى على ذلك بقوله :" وهذا كناية عن سوء الحال ، فإن الكريمى ورث من أبيه مالاً كثيرًا فأتلفه فى فترة قصيرة ، وساء حاله بعد ذلك . فقال الكريمى : إن قابلنى بكلمة لو صرفت عمرى فى هجوه ما وفيت بها" ([8]).

ومن المعروف أنه كان للطعام دوره الكبير فى كثير من نوادر ومضحكات الأدب العربى على مر العصور ، وكذلك لعب دورًا كبيرًا فى مضحكات العصر العثمانى ، فقيل : حضر الجنيد فى ضيافة عند أحد الأعيان بدمشق فخلط فى الطعام على عادته ، فأنكر فعله بعض من كان فى المجلس ، فلما تنبه

([5]) المضحك وتطوره فى النثر العباسى حتى نهاية القرن الرابع ، جمال عبد الغفار إبراهيم بدوى ، ص 103 ، 104

([6]) خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 490

([7]) المصدر السابق : 1 / 490 ــ 491

([8]) المصدر السابق: 1 / 494

لإنكاره أنشده قول الحريرى : (سامح أخاك إذا خلط) ، فذيل له المنكر هذا المصراع بقوله : (فى الرز والزرد فقط) ([9]).

وقيل حضر الأكرمى سماطًا وأمامه الجنيد فبالغ فى النهمة ، وكان فى المجلس بعض الأدباء فأنشد قول أبى محمد القزوينى الضرير فى رجل أكول :

وصاحب لى بطنه كالهاوية كأن فى أمعائه معاوية([10])

وقيل : حضر الجنيد ليلة فى دعوة كان فيها حافظ المغرب أبو العباس أحمد المقرى ، وأحمد بن شاهين ، فلما قدم الطعام قام الجنيد وتوضأ وصلى بعض ركعات ، فقال المقرى:

قـــام الجنيـــد يصـــلى ونحن نأكل عنـــه

. .

فقال ابن شاهين :

تقبـــل الله منـــا ولا تقبـــل منـــه ([11])

. .

وقيل : " دعا رجل آخر إلى منـــزله وقال : لنأكل معك خبزًا وملحًا ، فظن الرجل أن ذلك كناية عن طعام لطيف لذيذ أعده صاحب المنـــزل ، فمضى معه ، فلم يزد على الخبز والملح. فبينا هما يأكلان إذ وقف بالباب سائل ، فنهره صاحب المنـــزل مِرارًا فلم ينـــزجر . فقال له : اذهب وإلا خرجت وكسرت رأسك . فقال المدعو : يا هذا انصرف فإنك لو عرفت من صدق وعيده ما عرفتُ من صدق وعده ما تعرضتَ له "([12]) .

([9]) المصدر السابق: 1 / 491 ، وقال المحبى : والرز لغة فى الأرز .

([10]) خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 491 ــ 492 ، وذكر والد المحبى أن هذا البيت ذكر فى يتيمة الثعالبى ، واستجاد لفظه ووقوع الأمعاء إلى جنب معاوية لمزية ثالثة ، وهى كون الذى أنشد فيه من نسل معاوية .

([11]) خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 491 ــ 492

([12]) الكشكول لبهاء الدين العاملى : 2 / 295

وقال :" وجد يهودى مسلمًا يأكل شواء فى نهار رمضان ، فطلب أن يطعمه ، فقال له المسلم : يا هذا إن ذبيحتنا لا تحل على اليهود . فقال : أنا فى اليهود مثلك فى المسلمين "([13]) .

وقد تعتمد النادرة على اللحن والتصحيف كما نرى فى بعض هزليات البوريني عندما : سئل عن الحب ، هل هو بالكسر أو بالضم ، فقال : هو بالكسر ، ويستحسن فيه الضم . وسئل عن الجفن أهو بالكسر أو بالفتح فقال : هو بالفتح ويستحسن فيه الكسر ، ولا تفتح فيه العين ([14]).

وقيل :" قرأ بعض المغفلين " فى بيوتٌ" بالرفع . فقال له شخص : يا أخى إنما القراءة " فى بيوتٍ" بالجر . فقال : يا مغفل ، إنما كان الله سبحانه وتعالى قال :" فى بيوت أذن الله أن

ترفع" تجرها أنت لماذا ؟!([15]) .

ومن ذلك قولهم :"سأل بعض المغفلين إنسانًا فاضلاً قال له : كيف تنسب إلى اللغة ؟ فقال : لُغوى . فقال له : أخطأت فى ضم اللام ، إنما الصحيح ما جاءت فى القرآن " إنك لَغَوِىٌّ مبين "([16]) .

وكذلك استخدموا الألغاز والأحاجى فى النوادر ، ومن ذلك ماروى أن أحمد الشاهيني ألغز للبوريني فى سكين ، فلما فطن البوريني له قال : قد صعب علىَّ استخراجه ([17]) .

وكذلك كان لبعض المشروبات التى ظهرت مؤخرًا فى العصر العثمانى أثرها الواضح فى مداعبات أدباء تلك المرحلة ، ومن هذه المشروبات : القهوة والدخان ، وغير ذلك ، ومن ذلك ماروى من أدب عبد الباقى بن أحمد بن محمد المعروف بابن السمان الدمشقى ([18]) . وكان فتح الله ، المعروف بابن النحاس يتعاطى الكيف ، وله فيها نوادر ([19]) .

([13]) المصدر السابق: 2 / 296
([14]) خلاصة الأثر للمحبى : 2 / 54
([15]) الكشكول لبهاء الدين العاملى : 1 / 324
([16]) المصدر السابق: 1 / 325
([17]) خلاصة الأثر للمحبى : 2 / 54
([18]) المصدر السابق: 2 /272 ــ 273
([19]) المصدر السابق: 3 / 258 ــ 259

وروى أن بعض الظرفاء كان يشرب الخمر سرًّا ، وكان والده يمنعه ، وما زال أبوه يترصده إلى أن لقيه يومًا ومعه زجاجة خمر ، فقال : ما هذا ؟ قال : لبن . قال : اللبن أبيض، وهذا أحمر ! . قال : صدقت ، لما رآك خجل واحمرَّ ، وقبح الله من لا يستحى . فخجل وانصرف وخلاّه ([20]) .

وكانت الأمور الجنسية من المواد التى يتندر بها على مدى العصور ، فكان بعض الأدباء يستخدمونه فى السخرية من غيرهم ، كما رأينا فى سخرية عبد الحى طرز الريحان من أحدهم :

ألا قُلْ لمن أبــدَى اعتِــذَارًا وقــد أبى زِيارتَنَــا والرَّيْــبُ فى ذلــك العُــذْرِ
عليكَ أمــانُ الله مــا دُمْــتَ عنــدنا مــن القتــلِ والتَّشْــلِيحِ ثم لا أدْرِى([21]).
.
.

وكتب شهاب الدين الخفاجى يومًا لأحد المغاربة وكان يقول بالظباء : " مذهَبُ مولاىَ تقديمُ الذكور على الإناث ، وتطليقُ حُورِ الجنان بالثَّلاث ، لأن الرجل خيرٌ من المرأة بالاتفاق ، فلذا تخلَّف عن الخلاف([22]) ، وتقدَّم حيث الشِّقاق ، كما قلت له أولاً :

أديبٌ مَــالَ عــن حــبِّ الغَــوانِى وبالأحْــدَاثِ أصــبَحَ ذا اكتِــراثِ
وقــال اختَــارَ ذا أهــلُ المَعَــانِى فغَلَّبَــتِ الــذُكُورَ علــى الإنــاثِ([23])
. .

وكذلك كانت المعلومات المعكوسة أحد الأمور المتندر بها ، " قال بعض الأمراء لجنده : يا كلاب . فقال له أحدهم : لا تقل ذلك فإنك أميرنا "([24]) .

وروى " طوَّل ثقيل عند رجل ، فلما أمسى وأظلم البيت لم يأته بسراج ، فقال الرجل : أين السراج ؟ فقال صاحب البيت : إن الله تعالى يقول : " وإذا أظلم عليهم قاموا " فقام وخرج "([25]) .

([20]) نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 350ــ 351
([21]) المصدر السابق: 1 / 271
([22]) الخلاف : نوع من الطيب ، ومن أعظم أجزائه الزعفران .
([23]) نفحة الريحانة للمحبى : 4 / 405 ــ 406
([24]) الكشكول لبهاء الدين العاملى : 2 / 304

وقال المحبى : كان بدمشق خطيب يعرف بابن يونس ([26]) ، أعرج أعوج ، كما قال الفاضل : قامت العصا بيدِه مكان رِجلِه ، وقلَّتْ أعوادُ الأغْصَانِ من أجلِه . فعرجَ إلى الأرضِ لا إلى السَّما ، وغُرِسَ العُودُ بكَفِّه ولكن ما أورقَ ولا نَمَا ، وكان متَّهَمًا فى الاعتقاد ، لا يزالُ يَرْمِيهِ سهْمُ الانتقاد . وكان من جهلِهِ يتعرَّض للفُتْيَا ، ويُعِدُّ نفسَه أثْقَبَ القومِ رأيًا . فكتبَ يومًا على حكمٍ لقاضٍ : إنه باطل ، ومن حَلْى الحقيقة عاطِل . فأحضرَهُ القاضى فى مجلسٍ غاصّ ، جمع بين عالمٍ وخاصّ ، ثم أفسد ما قاله ، وما أهْمَله من التَّعْزير ولا أقالَه .

فكتب بعض القوم فيه رسالة أوسع فيها المقال ، وقرَّظَ عليها علماءُ ذلك العصر ، ومنهم السيد محمد بن على القدسى فقال :

" وقفتُ على هذه الرسالة ، التى سارتْ بسيرتِها الرُّكْبان ، وتناقَلَهَا أكابرُ الفُضَلاء فى هذا الزَّمان . فوجدتُها غريبةَ المثال ، مُعْرِبةً عن قائلها بأن لسان الحال أفصحُ من لسان المقال . قد تضمنتْ ما انطَوَى عليه هذا الغِمْرُ من القبائح ، وما انتشر منه هذا العُمْر القصير من الفضائح . فإنَّه قد مشى على غيرِ الاستقامة حسًّا ومعنًى ، وأنشد قول القائل فى ذلك المعنى :

مَن يَسْتقِمْ يُحْـرَمْ مُنَـاهُ ومَـن يَـزِغْ يُخْـتَصُّ بالإسْـعافِ والـتَّمْكِينِ
انْظُـرْ إلى الألِـف اسْـتَقَامَ ففاتَـهُ عَجْـمٌ وفـازَ بـه اعْوِجَـاجُ النُّـونِ

.

تَصَدَّرَ للفُتْيا مع أنه أجْهَلُ من تُوما الحكيم ، وأنصفه حمارُ ابنُ حُجَيج ، فرَكِبَه فى اللَّيلِ البهيم . قد فتحَ فاهُ بجَهْلِهِ ، وصدَّر فُتْيَاه بقوله : الحمد لله سبحانه ، والشّكْرُ له تعالى شَانَه. ولم يُمَيز فى السَّجْعَتَيْنِ بين الفاعل والمفعول ، فكأنه اشتغلَ بباب البدل مع حبِّه ، فحصل له هذا الذُّهُول . لأنه رأى فى كتب النُّحاةِ المهذَّبة ، أن الفاعل على ما أسند إليه فِعْلُه ، فظنَّه بهذه المرتبة . ولو سُئِلَ لأبْرَزَ من ضميرِه هذا الخاطر ، وحلف بأبى حمزة أن هذا هو الظاهر .

([25])المصدر السابق: 2 / 308

([26]) هو شرف الدين محمود بن يونس بن يوسف الحنفى ، كان خطيبًا طبيبًا ، تلقى الفقه على الشيخ عبد الوهاب خطيب الجامع الأموى ، وأخذ الطب عن أبيه ، والقراءات والتجويد عن الشهاب الطيبى ، وعن شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى ، وابن فهد ، وتولى خطابة الجامع الأموى ودرس فى المدرية الخاتونية والجقمقية ، وكانت وفاته سنة 1008 هـ . انظر فى ترجمته : خلاصة الأثر للمحبى : 4 / 324

لا يسْــتَوِى مُعْــرِبٌ فينَــا وذُو لحــنٍ هلْ تســتَوِى البَغْلَــةُ العرْجَــاءُ والفَــرَسُ

.

وطالما عرج على درَج المِنْبَرِ ، وجعل أمْرَدَه أمامه ، ولولا التَّقِيَّةُ لجعله إمَامَه ، وما تلفَّتَ على المِنْبَر يمينًا وشمالاً ، إلا ليَقْتَنص ظَبْيًا أو يَصيدُ غزالاً . وإذا ترنَّم وأظْهَرَ الخُشُوع ، واهتزَّ لغيرِ طَرَبٍ وأجرَى الدُّمُوع . فلأجلِ مَليح رآه عند المحراب ، و لم يستطِعْ أن يُشافِهَه بالخطاب . أو ليخْدَع بعضَ الحضَّار ، من الأتقياءِ الأخيار . فأنشدتُه ارتجَالاً ، وأنفاسى تتصَعَّد ،ومُهْجَتِى بنارِ الكَمَدِ تتوَقَّد:

أفاضِــــلَ جلَّــــقٍ أيْــــنَ العلُــــومُ وأيــــن الــــدِّن مــــات فــــلا يقــــومُ
يُجَــــاهِرُكُمْ خَطِيــــبُكُم بِفِسْــــقٍ ويُفْتِــــى فــــيكُم تُومــــا الحكــــيمُ

.

وما كفاه ارتقى هذه المكانة ، إلا بالرِّشْوةِ والتَّزوير والخيانة . وما كفاه أخْذُه التَّدْرِيس بالتَّدليس ، وخوضُه فى الفتن التى فاق فيها على إبليس . حتى دخل على العُلَماءِ من غير باب ، وردَّ أقوالهم بغير صواب .

تــــراهُ مُعــــدًّا للخِــــلافِ كأنَّــــهُ بَــرَدٍّ علــى أهْــلِ الصَّــوَابِ موَكَّــلُ

.

فيا أيها المُجترى ، والغِمْرُ المُفْتَرِى ، أراك قد سوَّل لك زَعْمُك الفاسد ، وصوَّر لك فِكْرُك الكاسِد ، أن الله قبض العُلماء و لم يبق منهم أحد ، واتَّخذ النَّاسُ رُؤساءَ جُهَّالاً فى كلِّ بلد، فتُضِلَّ النَّاسَ كما ضَلِلْتَ وتَعَدَّيْتَ ، وتُنْفِق بضاعتَك الكاسِدة بقولِكَ أفتيت .

قولُــــوا لأعْــــرَجَ جاهــــلٍ مُتَكَبِّــــرٍ قــــد جــــاءَ يَطْلُــــبُ رِفْعَــــةً وتَقَــــدُّمَا
دعْ مــا تَــرُومُ فــإنَّ حظَّــكَ عِنْــدَنَا تحتَ الحضــيضِ ولــو عرجْــتَ إلى السَّــمَا

.

كلاَّ ، إن أمرَكَ ممَّا يدلّ على جهْلِكَ المُرَكَّب، وعدمِ فهْمِكَ الذى هو من ذاك أعجَبْ. إنَّك ترى دمشقَ مشحُونةً بالأفاضِل الذين ليس لهم فى الدَّهْر من مُمَاثل ، وهم مشغولُون بالعلوم وتحريرها ، وتنقيح المسائل وتقريرِها ، وأنتَ تُغَالِط بنفسك ، وتُدخِلُها مع غير أبناء جِنسك .

وتترفَّعُ على مَن لا يَرْتَضيكَ لتقبيلِ رِجلِه ، ولا يرَاك أهلاً لخدمة نعله ، دع الفخْرَ فلستَ من فُرْسانِ هذا الميدان ، ولا أنت ممَّن أحرزَ قصّبَ السَّبقِ يوم الرِّهان . ومالكَ شيخٌ فى العلوم والتَّدريس ، سِوى أبى مُرَّة اللعين إبليس ، فما زلتَ تسلُك فى مسالِكِه ، وتقعُ فى مَهَاوى مهَالِكِه . حتى أنشد لسانُ حالِكَ فى قبيحِ سِيرَتِكَ وخُبْثِ أفعَالِكَ :

وكُنتُ فتًــى فى جُنْــدِ إبلــيسَ فــارْتَقَى ... بِىَ الحالُ حتَّى صــارَ إبلــيسُ مــن جُنــدى
فلو عشتُ يومًــا كنــتُ أُحْســنُ بعْــدَهُ ... طَرَائــقَ فِسْــقٍ لــيس يُحْسِــنُها بَعْــدِى

.

ولما تبين أمرُك طرَدَكَ حضرة المولى وأقصاكَ ، وحجَبَ سمْعَه عن تُرَّهاتِكَ وما أدْنَاكَ ؛ فتَضاعَفَ له الدُّعَاءُ من سائر الورَى ، وترادَفَ له الشُّكْرُ من أهلِ المدائن والقُرَى ، فالله يمدُّ أطنابَ دولتِه السَّعيدة ، ويُدِيمُ صَوْلَتَه الشَّدِيدة ، بمحمدٍ وآله ، ومن سلكَ على مِنْوالِه "([27]) .

وكتب محمد الطيلونى فى هجاء القاضى عمر المغربى : " سلامى على من استعارَ الليلُ من سوادِ خِلْقَتِهِ ، واستفادَ طُوَيس الشُّؤمَ من صورته ، واكْتَسب النَّحْسان من نُحُوسِه ، وانكدَرت النجومُ من عُبُوسِه. لا زال مكتَسِبًا تفاصِيلَ الخِزْيِ والخِذْلان ، مُتَرَدِّيًا أرديةَ الذِّلَّة والصَّغار والهوان. ما نبحتْ كلابُ المغرب ، واستهانت عند من يهجو ويضرب . وبعد فإن سألتَ عنى أيها الخامل الذى لو قُدِر على حَمْل الذُكُور لكنتَ أوَّل حامل . فإنى بحمد الله من العزَّة والعافية فى أعلى رُواق، ممدوحٌ بألسنة الوزراء فمن دونهم بالاتفاق . فى عيشةٍ راضية مَرْضيَّة ونعمةٍ سابغةٍ سنيَّة . لا أرقَعُ قميصًا ، ولا أبيتُ خَميصًا ([28])، ولا أستعملُ خبيصًا ([29]) . ولا رهنْتُ منذ عمرى جُوخَةً ولا صوفا ، ولا تطَفَّلْتُ على خُوان أنتظر فيه لحمةً أو رغيفًا . وإنى بخيرٍ كما لا تُحبون ، وأرجو من الله ما ترجون . وأسأل الله تعالى أن لا تكونوا كذلك ، وأن يوقعك فى أضيقِ المسالك والمهالك . ومما أقْرَعُ به سمْعَك أعاره الله الصَّمم ، وألَمَّ بعينيك وفيك العمى والبَكَم . أنى كنتُ أضربتُ عن هجوكَ صفحًا ، وطويتُ على إشهار مثالبِك كشحًا . ورميتُكَ ورائى ظِهريًّا ، وجعلتك نسيًا منسيًّا ، وإن كنت جئتَ شيئًا فريًّا . وقد سمعت أنه بلغ بك من الحسد والجهالة ، أن لفَّقْتَ من هذيانك وسرقاتك رسالة ، وتعرضت فيها لذكر من لستَ له على بال ،

([27]) الرسالة فى نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 329 ــ 335

([28]) الخميص : ضامر البطن من الجوع .

([29]) الخبيص : طعام يصنع من التمر والسمن .

ولا تجُول بِخَلَدِهِ إلاَّ إذا تغوَّط أو بال ، وتوصَّلْتَ ببعض المعاتيه ، الغارقين فى بحر الهُيام والتِّيه . ليوَصِّلَها لصاحب الدولة ، أدام الله له العزة والصَّوْلة . فحين رمقها مزَّقها كُلَّ ممزَّق ، وتحقق أنك أكذبُ من المُخَرّق ([30])، وكانت سببًا لسقوط نحْسِكَ ، وازدياد عكْسِكَ وبخْسِكَ . فكنتَ كما قيل : كالجادِع بيده مازَ أنفِه ، والباحث على حتفه بِظِلْفِه . ولَعَمْرِى قد تحكَّكَت العقربُ بالأفعى ، واستنَّتِ الفِصَالُ حتى القَرْعَى ([31]) .وإذا حان أجلُ البعير حام حول البير .

يا سالِكًا بين الأسِنَّةِ والظُّبَا إنِّ أشُمُّ عليك رائحةَ الدَّمِ

وحيث أبَيْتَ إلا الإصرار ، وأوقعتَ نفسك كالفراش فى النار . وعبستَ وبَسَرْتَ([32]) وأدبرت واستكبرت ، حينئذ أرلتُ لك فى هذا الكتاب بعضك جوابك ، وتعلم أنه ينـــزلُ الألم والجوى بك ، فصواعقُه لك مُحرقة خوارق ، وزواجرُه على رأسِك يا سِنْدَال كالمطارق ، ارتجالىٌّ الاختراع ، مُرَبَّع الأسجاع . مُرتَّب على حروف المعجم ، فاسمع يا خاملَ الذِّكر وافهم : يا خطَّ البهائىّ ، يا حِزام النَّشاشىّ ، يا إفلاسَ البيائىّ ، يا تُهمةَ التتائىّ .

يا خَرُوفَ أبى الطِّيب ، يا يوم الزَّمْهَرير والصَّـــيِّب ، يا خَجْلَةَ العَرُوس الثَّيِّب ، يا ضرطةَ الغنىِّ المُتَهَيِّب . يا أُضْحُوكةَ الغانيات ، يا حاملَ رِزْمَة المغنيات([33]) ، يا ثابتَ السِّجلاَّت ، خذ ما أتَى واستعدَّ لما هو آت . يا من لِباسُه رثّ ، وحديثُه غثّ ، وتطفيلُه وجرُّه بالكَدِّ والحثّ ، ودأبُه الانكبابُ فى الأرضِ للبحث . يا ظُلمة الليل إذا سجى ، يا من لا يُهابُ ولا يُرْتَجَى ، يا فاقد اللُّبِّ والحِجَى ، لا بلغَتْ بك النُّوقُ النَّجَا . يا كثيرَ النُّبَاح ، يا خائبًا فى الغُدُوِّ والرَّوَاح ، كأنك ثورٌ دائرٌ فى الطواح ، ملأتَ الجهات من البكا والنُّوَاح . يا أسْود سالِخ([34]) ، يا عُفونةَ المسالخ ، يا عُصارةَ الكامخ([35]) ، يا غَضاضةَ الرَّامخ([36]) .

([30]) كثير التخريق .

([31]) وهو مثل يضرب للذى يتكلم مع من لا ينبغى أن يتكلم بين يديه .

([32]) قطبت وجهك .

([33]) الرزمة : ما شد فى ثوب واحد ، أى أنه يحمل ثياب المغنيات فى ثوب .

([34]) الأسود السالخ : نوع من الحيات .

([35]) الكامخ : مخلل يشهى الطعام

([36]) الرامخ : البلح الأخضر .

يا زَلْعَةَ ([37]) القيح والدُّود ، يا كثير الآباء والجدود ، يا قُدار فى ثمود ([38]) يا عاقر ناقة أخى هود . يا حانةَ النَّبَّاذ ، يا خندق بغداذ ، يا من يضُمُّ الأفخاذ على الغُرْمُول([39]) من الالتذاذ . يا مرتعَ ..... ([40])، يا منبعَ الفساد والفُجور ، يا يوم المُفْلِس المهجُور ، يا خِزَانةَ الإفكِ والزُّور . يا ..... ([41])القَزَّاز ، يا فروةَ الأجْذَم النَّزَّاز ، يا نُقاعةَ الخَرَّاز ، يا حبَّةَ الصَّيفِ على الخبَّاز . يا أقرعَ الراسِ ، يا نتن الأنفاس ، يا حمارَ التَّرَّاس ([42]) ، يا بغل ابن قلقاس . يا دستمان الفراش ، يا ثوب النَّبَّاش ، يا جوخةَ قِرْوَاش ، يا عمامةَ خطيبِ بهواش . يا صِنَّةَ ([43]) اللُّصُوص ، يا مُبغَض يا منقوص ، يا من جحد النُّصوص ، وأنكر ما فى الفُصُوص([44]). يا تارك السُّنَّة والفرْض ، يا من سعى بالفساد فى الأرض، وتعرَّض للأعراضِ بالقرْض ، وتفرَّع من العِرْض وامتلأ من العَرْض . يا منديل اللِّواط ، يا بيت الوَطْوَاط ، يا سائل اللُّعاب والمُخاط ، يا مِكْواة الخيَّاط . يا عينَ الجاحظ ، يا تمتمة اللافِظ، يا سليب الحدْس والملاحِظ . يا بَخَرَ السَّبْع ، يا كَشَرَ الضَّبْع ، يا ثامنَ السَّبْع ([45]) ، يا مِرْحاضَ الرَّبْع. يا خليجَ المدابغ ، يا أشيخان المصابغ ، يا مِيلَغَة ([46]) الوالِغ ، يا ماء الحوْرَاء ([47]) ورابغ([48]). يا عرِيضَ القفا والأكتاف ، يا زنبيل العلاَّف([49]) ، يا خُرْج شوعة الصَّرَّاف ([50]) ، يا من لم يُحسن الفرق بين المُنَجِّم والعرَّاف . يا ساعةَ الفراق ، يا أوْسَعَ من العِراق ، يا سيبة بولاق ، يا حليفَ الشَّقا والشِّقاق . يا دُكَّانَ السَّمَّاك ، يا ثقالة الأراك ، سعِدَ من لا يراك ،

([37]) الزلعة : إناء للشرب يستخدم فى مصر .

([38]) هو قدار بن سالف الذى عقر ناقة صالح عليه السلام .

([39]) الغرمول : ذكر الإنسان .

([40]) كلمة نابية .

([41]) كلمة نابية .

([42]) التراس : صانع التروس .

([43]) ذفر الإبط .

([44]) يقصد كتاب فصوص الحكم لمحيى الدين بن عربى .

([45]) يقصد كلب أهل الكهف .

([46]) الإناء الذى يلغ فيه الوالغ .

([47]) الحوراء : مرفأ سفن مصر .

([48]) رابغ : واد بين البزواء والجحفة .

([49]) الزنبيل : وعاء من الخوص .

([50]) الشوع : شجر البان أو ثمره .

وخاب من قرَّبك وأدناك . يا عِشَّ القُمَّل ، يا خشْكَليشة الدُّمَّل ([51]) ، يا ماء الشِّتاء المسيَّل ، يا جامعَ ابن غُراب المعطَّل . يا قُفَّةَ المجذوم ([52]) ، يا عَرَق المحموم ، يا صباح القِرْدِ والبُوم ، أنتَ بعينه الفاسِقْ المحروم . يا بَوْلَ الخِصْيَان ، يا رَجيعَ الرُّهْبَان ، يا مائدةَ العُميان ، يا مَخْزَنَ الصَّدِيد والصُّنَان . يا مهبط الدَّوَاهِي ، يا من خالفَ الأوامرَ والنَّواهي ، وجدَّ فى التَّلاهِي ، وتبع الغىَّ والملاهى . يا سميرَ البلْوَى ، يا كثيرَ الشَّكْوَى ، يا أثقَلَ من رضْوَى ، إلى كم تسقِى جُحْرَك ولا يرْوَى . يا صريعَ الدِّلا، يا من هو لا إلى هؤلاء ولا إلى ، أينما تتوجَّه لا([53]) ولم تزل مُكِبًّا على . يا خِدْنَ البغْىَ والغَىِّ ، يا جلدةَ الجُرْح والكَىِّ ، يا زُغْمَةَ([54]) القىّ ، يا باقلَ الفهاهة والعِىِّ ، فلا أنت مَيْتٌ ولا حىّ . وها قد نفذت الحروف ، ولم تنفد معايبك يا خروف ([55]) .

وكان شهاب الدين الخفاجى قد بالغ فى الفحش فى القول والهجاء عندما هجا أحد معاصريه بقصيدة طويلة أوردها المحبى فى نفحته ، قال فيها :

يـــا ســـخْرَةَ الشَّـــيْخِ بـــلا أُجـــرهْ وفَسْـــوَةَ المبْطُـــونِ فى السُّـــحْرَهْ
ويـــا كِـــرَا الـــدَّارِ علـــى مُفْلِـــسٍ وسَـــلْحَةَ المطْـــرُودِ فى وَعْـــرَهْ
وضَـــرْطَةَ السُّـــلْطَانِ فى موْكِـــبٍ بـــه وُفُـــودٌ تطلُـــبُ النُّصْـــرَهْ
وضـــيْعَةَ الهِمْيَـــانِ مـــن عائـــلٍ قُبيـــلَ عيـــدٍ أعْـــوَزَ الفِطْـــرَهْ
ونظْـــرَةَ المخمـــورِ عبْـــدًا لـــه قـــد كسَّـــر الأقْـــدَاح والجـــرَّهْ
وحسْـــرَةَ العِلْـــقِ إذا أقْبَلَـــتْ لِحيتُـــه فى آخِـــر الشَّـــعْرَهْ
وحَكَّـــةَ المقْطُـــوعِ كفًّـــا لـــه ودُمَّـــلاً يخـــرجُ فى الشَّـــعْرَهْ
ونظـــرَةَ الخِنْـــزيرِ مـــن خـــارِئٍ يرْمِيـــهِ لَمَّـــا جـــاعَ بالصَّـــخْرَهْ
ويـــا قَفَـــا المهْـــزُومِ مـــن فـــارِسٍ أدْرَكَـــه فى ســـاحةٍ قفْـــرَهْ
وبَهْتَـــةَ السَّـــكْرَانِ مـــن هـــاجمٍ فى ليلـــةٍ مُظْلِمَـــةٍ قفـــرَهْ

([51]) القشرة التى تعلو الجرح بعد اندماله وهى كلمة يونانية .
([52]) القفة : رعدة وقشعريرة تأخذ الإنسان من إصابته بالحمى .
([53]) يشير إلى قوله تعالى : " أينما يوجهه لا يأت بخير " سورة النحل : 76
([54]) الزغمة : من تزغم الجمل إذا ردد رغاءه .
([55]) نفحة الريحانة للمحبى : 4 / 605 ــ 609

ويـــا نَعِيًّـــا جـــاءَ عـــن واحِـــدٍ إلى عَجـــوزٍ مـــا لَهَـــا أُسْـــرَهْ
وَوَحْـــــدةَ الحُـــــرَّةِ فى ليلـــــةٍ ماتَ بهـــا الـــزَّوْجُ لَـــدَى الضَّـــرَّهْ
وحُجَّـــــةَ المُعْتَزِلـــــيِّ الـــــذى يســـــمَعُ نصًّـــــا ناقِضًـــــا أمْـــــرَهْ
وطلْعَـــــةَ الزِّنْـــــدِيقِ فى مسْـــــجِدٍ يخـــافُ مِـــن جيرَانـــهِ هُجْـــرَهْ
ووجْـــهَ تِمْسَـــاحٍ لَـــدَى ســـاحلٍ أتـــــاه غَرْقـــــانُ رأى بَـــــرَّهْ
وعُـــــرَّةً قـــــد خَرِيَـــــتْ فوقَـــــه ذُبَابَـــــةُ الُّـــــلِّ غـــــدا غُـــــرَّهْ(56)
ومَن غـــدا فى النَّظَـــرِ ابـــنَ الأُلَـــى فى عـــينِ إبْلِـــيسَ بهـــم قُـــرَّهْ
كم تَـــدَّعِى الفضْـــلَ ولا ترْعَـــوِى تُعِيـــدُ مـــا قـــال ذوُو الخِبْـــرَهْ
فهْـــو علـــى تكرِيـــرِ أقـــوالِهم كالجَمَـــلِ المشْـــغُولِ بـــالجرَّهْ(57)
يا أيهَا الفَخَّـــار مـــن أجْـــلِ مـــا طَـــوَّل رَبٌّ خـــالِقٌ عُمْـــرَهْ
هـــل تصـــدُق الأمثـــالُ فى قولِهَـــا مـــا كُـــلُّ يـــومٍ تسْـــلَمُ الجـــرَّهْ
يا جُعَـــلَ الجهـــلِ إلـــى كـــم مُـــــدَحْرِجًا فِـــى طَـــرَفِ البَعْرَهْ(58) تُرَى .

ولما كان من أشهر العيوب التى اتخذها الشعراء وسيلة للهجاء فى الشعر العربى : الجهل، والحمق ، ونفى الفهم ، والنفاق والرياء ، والكذب ، والبذاءة، والخمول واللؤم ، والبخل ، والخيانة، والعيوب الخلقية كاللثغة وبشاعة الصوت، والعور والعمى والعرج والبرص ، فقد كانت هذه العيوب من وسائل السخرية والفكاهة لدى الشعراء العرب فى العصر العثمانى ، فيهجو إبراهيم بن محمد الأكرمى الجنيد الدمشقى ويرميه بالزنا والدب فيقول :

(56) الغرة : ذرق الطير والبعر .
(57) الجرة : ما يخرجه البعير من بطنه ليجتره ثم يزدرده .
(58) نفحة الريحانة للمحبى : 4 / 612 ــ 613 ، وفى كتاب مصر والشام للدكتور شوقى ضيف البيت الرابع ، ومن البيت التاسع إلى الحادى عشر ، ص 305

الشَّـــامُ أضْـــحَتْ أحْوَالهـــا عَجَبًـــا فِـــى دَهْرِنَـــا وَالأمُـــورُ أسْـــبَابُ
القُطْـــبُ فِيهَـــا بِالعِشْـــقِ مُشْـــتَهَرُ لا يَسْـــتَحِى والجُنَيْـــدُ دَبَّـــابُ ([59])

وكان قبح الصوت من وسائل السخرية الشائعة منذ العصور القديمة ، فها هو ابن الغزال يهجو والد إسماعيل الجرشى الذى كان مؤذنًا ويسخر منه يقول :

إنَّ الجَمَـــالَ الجُرَشِـــى مِثْـــلُ المُغَنِّـــى القُرَشِـــى
يَـــوَدُّ مَـــنْ يسْـــمَعُهُ لَـــوْ ابْتُلِـــى بِـــالطَّرَشِ ([60])

والمغنى القرشى معروف ، يضرب به المثل فى رداءة الصوت ([61]).

ويقول المحبى عن مغنٍ : " جمعنى وفلانًا المغنى مجلسٌ فاسْتَقرأتُ مُكْرَهًا ، وسمعتُ ورأيتُ مُكْرَهًا . فقلتُ : قبَّحهُ الله من مغنٍّ سماعُ صوتِهِ غمٌّ ، كيف ولفظُ غمّ فى نغمه مُدْغَم ؟. فإذا أدَّى آذى ، وإذا غنَّى عنَّى .

لا مرْحبًـــا بِمُغَـــنٍّ طَـــوَى المَسَـــرَّةَ عنَّـــا
قـــال النَّـــدَامَى جميعًـــا لَّمـــا تغَنَّـــى تعَنَّـــى
يـــا ليتَـــهُ مـــا تغَنَّـــى يـــا ليتـــه مـــاتَ عنَّـــا

فما أحقُّه بقول بعض الكُبراء ، وقد غنَّى مغنٍّ فقيل له : كيف ترى ؟

ويَحْسَـــبُ النُّـــدْمَانُ فى دجَاجَـــةً يَخْنُقُهَـــا ثعلـــبُ
حلْقِه .

([59]) خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 491
([60]) خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 48 ، نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 397 ، وهى لابن أبى الأصبع .
([61]) انظر :خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 48 ، نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 397

وقيل لآخر ما قيل لهذا ، فقال :

وكـــأنَّ جُـــرْذَانَ المحلَّـــةِ فى حلْقِهِ يقْرِضْنَ خُبْـــزًا يابِسَـــا
كُلَّهَـــــــــــــــــــا .

.

غير أنى اختبرته اختبار عارفٍ أريب ، فرأيته فى صنعةِ الضَّرْبِ ماله ضريب ، فضربُه أوقَعُ من الضَّرِيبِ والضَّرَب ([62])، وإن كان غِنَاهُ كالضَّرْبِ على الرُّكب ، فبالجملة يستحقُّ على ضرْبِه غِنَاه ([63])، ويستوجبُ ضرْبَه على غِنَاه([64]) ، فمن ابْتُلِيَ به فلا يدَهْهُ يفتَحُ فاه ، إلا وهُوَ نازلٌ بالصَّفْع على قفاه "([65]) .

وكان الشره إلى الطعام والإقبال عليه ، والطمع من الأمور التى يسخر منها فى شعر الشعراء ، فمن ذلك ما قاله إبراهيم بن محمد الأكرمى فى هجاء الجنيد الدمشقى ، يصف ما كان فيه من شره للطعام ، ويخرج منها لفظ الجنيد بطريق التعمية :

وَذِى شَـــرَهٍ مُغْـــرَمٍ بالطَّعَـــامِ يَسِـــيرُ عَلَـــى بَطْنِـــهِ أَىّ سَـــيْرِ
تَـــرَاهُ إذَا مُـــدَّ زَاهِـــى الطَّعَـــامِ وَصُـــفَّ بِـــأَنْوَاعِ لُطْـــفِ وَخَيْـــرِ
يَمُـــدُّ يَـــدًا جُـــنَّ مِـــنْ قَبْلِهَـــا وَيَخْلِـــطُ كُـــلَّ الطَّعَـــامِ بِغَـــيرِ([66])

.

كما كان الرمى بالبخل بما فى اليد من أشهر وسائل السخرية والهجاء على مر العصور، فها هو الدونشرى يمر يومًا على صاحبه درويش المحلى وفى يده دينار فسقط منه فقال :

يَـــا فَائِقًـــا بِـــالجودِ بَـــينَ الـــوَرَى ومشَـــبِّهًا للمـــزْنِ فِـــى وَكْفِـــهِ
مُـــذْ سَـــقَطَ الـــدِّينَارُ مِـــنْ كَفِّكُـــمْ وَعَـــادَ مَثْـــلَ البَـــرْقِ فِـــى خَطْفِـــهِ

([62]) الضرب : العسل .
([63]) الغنى ضد الفقر .
([64]) من الغناء .
([65]) نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 397 ــ 398
([66]) خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 491

كَذَّبْتُ مَنْ قَدْ قَالَ فِى حَقِّكُمْ لا يَسْقُطُ الخَرْدَلُ مِنْ كَفِّهِ ([67])

.

ويرى يوسف بن عمران الحلبى المتوفى سنة 1074هـ أحد البخلاء فيصفه بأنه شحيح ما ترجى له سلامة من النار ، فإنه سوف يظل خالدًا مخلدًا فيها ، وإن مائدته لتخلو دائمًا من أى طعام حتى من الخبز ، ولو ألقى رغيفًا على مائدته ناسيًا لاستترت الشمس حتى يوم القيامة ، فيقول هاجيًا له :

بخِيلٌ لو بيَوْمٍ مِنْهُ جادَتْ أنَامِلُهُ لَغَالَتْهُ النَّدَامَهْ
ولو فى النَّارِ أُلْقِىَ ألفَ عامٍ لَمَّا عُرِفَتْ لَهُ يَوْمًا سَلامَهْ
ولَوْ صارَتْ بِسُفْرَتِهِ رَغِيفًا ذَكَاءُ لَمَا بَدَتْ حتَّى
القِيَامَهْ([68])

.

كما كان الشعراء يتبارون فى مجال السخرية والهجاء من باب المساجلات الأدبية فيما بينهم ، ومن ذلك ما نظمه محمد الكريمى فى قصيدة فى هجاء الجنيد الدمشقى والسخرية منه ، والسبب فى ذلك أن الجنيد كان مع بعض أدباء دمشق يومًا فخرج عليهم الكريمى ، فوقفوا جميعًا له ، إلا الجنيد ، فقال الكريمى يهجوه :

تزهو بشاشك أو بمالك وكلاهما من حظ مالك
قم كم تنام وفى الهوى متهالكًا يا سوء حالك
كيف القيام لناسك إن لأعجب من محالك

.

وكانت قد نشأت فى البلاد العربية كثير من الفنون الشعرية العامية كالزجل ، والمواليا ، والكان وكان والقوما([69]) ، والتى زاد انتشارها بداية من العصر المملوكى ؛ نتيجة لاهتمام سلاطين المماليك به وتشجيعهم للشعراء على هذا اللون الأدبى . وامتد هذا الاهتمام إلى أدباء وشعراء العصر العثمانى الذين

([67]) خلاصة الأثر للمحبى : 3 / 56
([68]) مصر والشام للدكتور شوقى ضيف : ص 607 ــ 707
([69]) مصر والشام للدكتور شوقى ضيف : ص 386

اهتموا كثيرًا بالأدب الشعبى والعامى ، وزاد اهتمامهم بفنون جديدة كفن خيال الظل الذى نشأ فى العصر المملوكى ، والألغاز والأحاجى التى تطورت تطورًا كبيرًا فى العصر العثمانى ، والأمثال الشعبية .

ومما زاد من الاهتمام بالأدب الشعبى فى مصر زمن العثمانيين ذلك الانتشار الواسع والواضح للمقاهى فى مصر وبلاد الشام ، بداية من القرن العاشر الهجرى ، وأخذ أصحاب المقاهى يتنافسون فى اجتذاب الناس ، فكان منهم من يستأجر القصاص ، ليقصوا الحكايات المشوقة والقصص العجيبة ، وسير الأبطال ، فظهرت فى تلك الفترة سيرة الظاهر بيبرس ، وسيرة الأميرة ذات الهمة ، وقصص صغير مثل : الدرة المكللة فى فتح مكة المكرمة ، وغزوة الإمام على مع اللعين الهضام بن الجحاف " ، و" فتوح اليمن المعروف برأس الغول " ، وانتشرت قصص ألف ليلة وليلة ، وقصص عنترة بن شداد ، وسيف بن ذى يزن ، وتخلل ذلك الكثير من الأشعار باللغة العامية ، التى كان ينشدها القصاص والمنشدون مستخدمين آلات الطرب الربابة والعود ([70])؛ وزاد هذا التنافس بين أصحاب المقاهى من اندفاع المغنين إلى الإجادة والإتقان ليحوز كل منهم قصب السبق ؛ فتنهال عليه الأرباح الكبيرة ، واتصل المغنون بالشعراء يريدون نظم المقطوعات الغنائية ، مما زاد من انتشار الأزجال والمقطوعات الشعرية الغنائية والموشحات ([71]) .

واشتهر كثير من أدباء العصر العثمانى بالاتجاه نحو الأدب العامى والشعبى فى مصر وبلاد الشام ، ومن أشهر هؤلاء ابن إياس صاحب بدائع الزهور المتوفى سنة 930هـ بشعره العامى له ولمعاصريه كبدر الدين الزيتونى المتوفى سنة 924هـ، والذى كان يعد من كبار نواب الشافعية ([72]) . ومنهم أيضًا : فتح الله بن النحاس الحلبى المتوفى سنة (1052 هـ) ، والشيخ أيوب الخلوتى المتوفى سنة (1071 هـ) ، ومصطفى البابى الحلبى المتوفى سنة (1091 هـ) ، وإبراهيم بن عبد الرحمن السؤالاتى المتوفى سنة (1095 هـ)، ومنهم أيضًا الشيخ عبد الغنى النابلسى الذى يعد من أغزر شعراء العصر العثمانى نظمًا للموشحات والمواليا والكان وكان والدوبيتات .

ولعل أشهر من كتب فى الفكاهة والسخرية بالعامية فى الأدب العربى فى العصر العثمانى هو الشيخ يوسف الشربينى ، وقصيدة أبى شادوف التى شرحها فى كتابه الشهير بـ" هز القحوف فى شرح

([70]) الأدب المصرى فى العصر العثمانى لمحمد سيد كيلانى : ص 22 ــ 23

([71]) الأدب المصرى فى العصر العثمانى لمحمد سيد كيلانى : ص 206

([72]) الأدب المصرى فى العصر العثمانى لمحمد سيد كيلانى : ص 191

قصيد أبى شادوف "([73]) ، وبدأ المؤلف كتابه بكثير من الحكايات الهزلية التى تتحدث عن أخلاق أهل الريف ، رجالاً ونساءً ، وعن العادات السائدة بينهم ، والجهل المطبق عليهم ، وسوء أخلاق أهل الريف([74]) .

وفى هذه الكتاب كثير من ذكر العورات ، والعبارات المكشوفة ، والألفاظ القبيحة ، وقد شنع الشارح فيه على الفلاحين ، ورميهم بكل موبقة ، ووصفهم بكثير من العيوب ([75]) ، ويظهر من هذا أن الشيخ يوسف الشربينى قد وضع أهل الريف فى إطار يرضى أصحاب السلطان، ويشبع رغبتهم بتصوير أهل الريف فى صورة سيئة تأبى العين النظر إليها ، ولكن فى ذات الوقت فإن التفصيلات الداخلية لهذه الصورة تحوى تصويرًا كاملاً للظلم الذى حل بهذه الطبقة من الفلاحين ، والإهمال الذى أصابها نتيجة للرقابة التى تحكم العلاقة بين أفراد هذه الطبقة من جهة ، وأجهزة الإدارة من جهة أخرى ([76])، ومن صوره الشنيعة التى صور فيها الفلاح المصرى قوله :" وقبل الخوض فى بحر هذا الكلام نذكر ما وقع لعوام بعض أهل الريف ، ووصف طبعهم الكثيف ، وأخلاقهم الرذيلة ، وذاتهم الهبيلة ، وأسمائهم المقلبة ، وشخوصهم المشقلبة ، وقمصانهم المشرمطة ، وأشعارهم الملخبطة ، ونسائهم المزعجات ، وما لهم من الدواهى والبليات ، فنقول : أما سوء أخلاقهم، وقلة لطافتهم فمن كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار، وملازمتهم لشيل الطين والعفار ، وعدم اكتراثهم بأهل اللطافة ، وامتزاجهم بأهل الكثافة "([77]) كأنهم خلقوا من طينة البهائم .. وأيضًا عندهم قلة الوفا ، وعدم الأنس والصفا ، لا يؤدون القرض ، ولا يعرفون

([73]) ذكر كارل بروكلمان أن الكتاب قد طبع أكثر من مرة فى مصر ، منها طبعة بولاق سنة 1274 ، 1284 ، 1308 ، والقاهرة 1323 ، والإسكندرية 1289 ، انظر تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان : 8 / 30

([74]) مصر والشام لشوقى ضيف : ص 482 ، فصول من تاريخ مصر ... فى العصر العثمانى: ص 61

([75]) الأدب المصرى فى العصر العثمانى للدكتور محمد سيد كيلانى : ص 200 ، تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان : 8 / **30**

([76]) فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى لعبد الرحيم عبد الرحمن : ص 61

([77]) الأدب المصرى فى العصر العثمانى للدكتور محمد سيد كيلانى : ص 200

السنة من الفرض، إن عاملتهم أكلوك ، وإن نصحتهم أبغضوك ، وإن أقمت لهم الشرع رفضوك، وإن ألنت لهم الجانب مقتوك ، العالم عندهم حقير ، والظالم عندهم كبير([78]).

ويصور أخلاق المتظاهرين بالدروشة ، وما تسببوا فيه من انحطاط الرجال والنساء ، وبعد عن الدين الحنيف وتهكم بالشعراء ، فقال :

ناظمهم إن قالَ يومًا شعرًا فشعر يشبهُ طعم العذرا
سماعه إذا بدا رزية لكن له ما بينهم مزية([79])

. .

وعلق على شعر قول من قال :

والله والله العضِيم القادر هو عالما بسرايرى وخبايطى
إن عاود القلب المشوم ذكركم لأقطعوا من مهجتى بأصبعى

. .

فقال : هذا الكلام من بحر الهلفطة ، والمعانى المشرمطة ، وتفاعيله متلخبطة متخلبطة ، متخايطة . ([80])

وهكذا يختم الشيخ الشربينى مقدمته لشرح قصيدة أبى شادوف بأرجوزة هجا فيها الفلاحين وسفه عقولهم وسيطرة الدراويش ورجال الطرق الصوفية على عقولهم وحياتهم ، ولكن ذلك لا يعنى أنه كان يحاول المداراة أحيانًا كما يقول فى إحدى أراجيزه :

فطورًا ترانى عالِمًا ومدرسًا وطورًا ترانى فاسِقًا فلفُوسا
وطورًا ترانى فى المزَامِرِ عاكِفًا وطورًا ترانى سيدًا ورئيسَا
مظاهِر أنْسٍ إن تحقَّقتْ تُريكَ بدُورًا أقبلتْ

([78]) فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن : ص 62 ــ 63

([79]) فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن : ص 64

([80]) الأدب المصرى فى العصر العثمانى للدكتور محمد سيد كيلانى : ص 201

سرَّهَا . وشُمُوسَـــــــــــــــــــــــــــــــا([81])

.

وقصيدة أبى شادوف قصيدة يظهر فيه شكوى الفلاح المصرى من ظلم المتزمين وأعوانهم من أجهزة الإدارة ، كما فى قول الشاعر:

يقول أبو شادوف عن عظم ما شكى من القمل جسمه ما يضال نحيف
أنا القمل والصبيان فى طوق جبتى شبه النخالة يجرفوه جريف
ولا ضرنى إلا ابن عمى محيلبة يوم تجى الوجبة على يحيف
وأيشم منه ابن أخوه خنافر يقرط على بيضى يخليه ليف
ومن نزلة الكشاف شابت وصار لقلبى لوعة ورجيف
عوارضى ويوم يجى وأهر على روحى من التخويف
الديوان تبطل مفاصلى ويبقى ضراطِى شبه طبل عنيف
وأهرب حدا النسوانْ والتف بالعبا تقضِى ولا لى فى الحصاد سعيف
ويا دوب عمرى فى الخراج وهمه تخبينى فى الفرن أم وطيف ([82])
ويوم تجىء العونة على الناس فى البلد .

.

ويتحدث الشاعر عن الأطعمة التى يأكلها هو وأبناء طبقته من الفلاحين المساكين ، ويتحدث عن تلك الأطعمة التى يتمنى أن يتناولها فى يوم من الأيام ، مصورًا مدى الحرمان الذى أصابه وأصاب أفراد طبقته :

ولا هدِّنى من بعد هاد وهاده سوى الكشك لما يستحق عريف([83])
ولا شَاقنى إلاَّ المدمس وريحتو علا من جتو جففه بنص رغيف

([81]) فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن : ص 65

([82]) فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن : ص 66 ــ 67 ، لما كانت أبيات القصيدة موزعة على صفحات الجزء الثانى كله من كتاب هز القحوف ، قام الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن بتجميع أبيات القصيدة بترتيب أبياتها .

([83]) فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن : ص 64

علا من رأى البسار فى الجرن جالوا ويدعس ولو كان بالقلنج ضعيف([84])
على من قشع جفنه بليلة ملانه ولو كانت بلا قلقاس يا دنديف
على من جتو قصعة وهو بيحرت ويقعد يجرف للحنك تجريف([85])
على من دعس بالعزم فى المش بالبصل ولو كان بالسكرات كان ضريف
على من شرب متر دملان مطنير من اللبن الحامض يرف رفيف
على من جتوا أم الخلول لدارو ويعزم على أهل البلد ويضيف
أنا إن شفت عندى يوم طاجن مشكشك . فهداك يوم البسط والتقصيف([86]) .

ويقول أيضًا متمنيًا بعض الأطعمة البسيطة :

متى أنضر الخبز فى الدار عندنا وأندف منها بالعويش نديف
متى أنضر الفول المشوى بفرننا ولفو يقشروا والعروق لفيف
متى أنضر أن طحن الطحين وجبتو وبطط لى منه فطير رهيف([87])
أيا مطيب الجليان والعدس إذا وشرش بصل حولو وميت
استوى يا محسن رغيف([88]) فوقو من
الخبز المقمر على الندده السرسوب حلب نضيف([89])
على من ملا قحفو جبينه طربه وراح ورا الجاموس يرعى النيف
على من قشع لقانة أمو ملانه من الهيطلة اللى لها ترصيف
وأقعد لها بالعزم فى رايق الضحى واسحب لها مصبوبة أم وطيف

([84]) يدعس : يأكل بشراهة حتى يملأ بطنه .
([85]) يحرت : أى يحرث ، يجرف : تناول بشدة ، الحنك : الفم وهو معروف .
([86]) فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن : ص 73 ــ 74

([87]) أنضر : أنظر وأرى ، بطط : أى خبز .
([88]) شرش : مجموعة مع بعضها البعض .
([89]) الندده : أى الصباح الباكر وقت أن يكون الندى على النبات ، والسرسول : هو لبن أول حلب .

ألا يا ترى اشحال اللبن بعد غلوه ولو كان بالخبز السخين رديف
ألا يا ترى اشحال مفروكة على زلطها قلبى يرف
اللبن . رفيف[90]

.

ويقول أيضًا أنه لن يتورع عن سرقة بعض الأطعمة إذا ما تيسر له ذلك من طعام ابن عمه أو من طعام غيره :

أنا إن شفت لقانة ابن عمى مخيمر ملانة من التفتيت ملو طفيف
قشرته جميعه ما تركت بقيته لغيرى ولا عندى بدا توقيف
أنا خاطرى أكلت فسيخ على النده أضال عليها باكيا وأسيف[91]
على من نضر فى فرن دار وطوجن زغاليل من برج بن أبو شنيف[92]
وفطر فطاير من طحين ابن عمه ويقعد لها قعدة غلام خسيف
على من نضر طاجن سمك فى فرينه ولو كان يا اخوانى بلا تنضيف
على من رأى فى التل كرش ملقح ومن فوقه الدبان يعف عفيف[93]
دنا إن شفته خدتو بحالوا سلقتو وكلتو بتلفوا ما أرى تقنيف[94]

. .

ثم أخذ الشاعر يتمنى أن يذهب فى يوم من الأيام إلى المدينة ليأكل منها ما يتمناه من ألوان الطعام التى حرم منها فيقول :

أنا إن عشت لا روح المدينة وأشبع كروش ولو أنى أموت كفيف

([90]) زلطها : بلعها وأكلها بسرعة شديدة .يرف رفيف : أى يخفق خفقانًا . فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن : ص 74 ــ 75

([91]) أضال : أظل .

([92]) زغاليل : صغار الحمام .

([93]) كرش ملقح : أى كرش الحيوان الذبيح ، وقد ألقى على القمامة . الدبان : الذباب .

([94]) فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن : ص 75 ــ 76

وآخـــذ مـــن غـــزل العجـــوز وأبيعـــو وآكـــل بحقـــو يـــا ابـــن بنـــت عريـــف
وأســـرق مـــن الجـــامع زرابـــين عـــدة وآكـــل بهـــا مـــن شـــهوتى فى الريـــف
وأشـــبع مـــن التـــرمس وآكـــل مقيلـــى وألفـــوا بقشـــرو مـــا أرى توقيـــف
وآخـــذ لى لبـــدة وكرمشـــنير وأنـــزل كمـــا كلـــب ابـــن أبـــو جنيـــف
ويجلـــس بجـــبنى ابـــن جـــرو وكـــل خـــره وابـــن كـــل الصـــك النضـــيف وضـــيف
وابـــن فســـا الـــتيران وابـــن خـــرا الحســـه وقلـــوط الزبلـــة وابـــن كنيـــف
واخـــتم قصـــيدى بالصـــلاة علـــى الـــنبى. نـــبى عـــربى مكـــى شـــريف عفيـــف([95]).

.

خيال الظل والفكاهة :

و"خيال الظل واحد من فروع ثلاثة من فن الدمى ، أما الفرعان الآخران فهما فن العرائس ، وفيه تتحرك الدمى بخيوط خارجية ، وفن القره قوز، وفيه يلبس اللاعب فى يده قفازًا ، نصفه الأعلى دمية ويحركها من الداخل" ([96]).

وبالرغم من أن خيال الظل من الفنون الشعبية التى لا يستطيع الباحث أن يحدد نشأتها ومراحل تطورها على التحقيق ؛ لأنها ، بحكم تلقائيتها ومرونتها وصدورها عن الوجدان الجمعى ، تساير امتداد

([95]) فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن : ص 77

([96]) الفنون الشعبية لرشدى صالح : ص 62 ، خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص 10، وكان مسرح خيال الظل يتكون من حاجز خشبى بعرض صالة طويلة ، يفصل بين المشاهدين المصفوفين عن اللاعبين ، ويرتكز هذا الحاجز على الأرض ويرتفع فوقها حتى قبيل السقف بقليل وعلى بعد متر ونصف تقريبًا ، فتحة طولها نحو المتر وعرضها متر ونصف تقريبًا ، وتشد عليها ستارة من القماش الأبيض الرقيق الشفاف ، وفى أسفل الشاشة من داخل المسرح ثبت قشيب من الخشب ليحمل الدمى التى تشترك فى اللعب ، كما تشترك كثير من مجموعات الدمى التى تمثل شخصيات التمثيلية ، وهى دمى على هيئات شخصيات إنسانية أو حيوانية كالكلاب والحمير والماعز وغير ذلك ، وعندما تطفأ الأنوار وتغلق النوافذ ، يتم تثبيت هذه الشخوص فى القضيب الخشبى ، ثم يضاء من داخل المسرح مصباح زيتى أو مجموعة من الشموع تحبس أنوارها بواسطة حواجز ، تمكن الضوء من أن يتركز على الشاشة ، فتظهر ظلال الشخوص على الشاشة وتنعكس من الجهة الأخرى . انظر خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال للدكتور إبراهيم حمادة : ص 14 ــ 16

الشعب الذى يعبر بها عن ذاتيته العامة ، وعن مختلف مواقفه ([97])، فقد ذكرت كثير من المصادر أن الأدب العربى قد عرف فن خيال الظل قبل فترة الحكم العثمانى لمصر وبلاد الشام، وذاع صيته منذ العصر الفاطمى([98]) والمملوكى ، وكثر ذكره فى مؤلفات كثير من كبار الكتاب كابن إياس والمقريزى وغيرهما ، وكان المغول قد حملوه معهم حينما هاجموا الشعوب الإسلامية ، فانتشر فى العراق وتركيا وسوريا ومصر وشمال أفريقيا ، ثم أوربا ([99]) ، وكان ابن دانيال (محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعى الموصلى ، المتوفى سنة 710 هـ ـ كان قد دخل إلى مصر سنة 656هـ ، عند اجتياح المغول للعراق ـ من كبار الكتاب والشعراء الذين كتبوا فى هذا الفن ونشروه فى مصر ، وله كثير من الأشعار الخليعة والماجنة ، وكثير من التمثيليات الماجنة الساخرة التى تعتمد على فن خيال الظل ([100]) .

واهتم العثمانيون بهذا الفن حتى أصبح يذكر عندهم بالقراقوز (الكراكوز) وهى لفظة تركية مغولية معناها " ذو العيون السوداء " وهى تؤدى معنى خيال الظل ، وهى عبارة عن تمثيليات أبطالها دمى تلعب من خلف ستارة ، يحركها لاعب أو أكثر ، وتحكى كل تمثيلية قصة من الأقاصيص الشعبية ([101]).

([97]) خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص 9

([98]) وكانت أول إشارة يعتد بها فى ظهور خيال الظل فى مصر زمن الأيوبيين ، تلك الرواية التى قرنت خيال الظل بصلاح الدين الأيوبى ، ومن ثم ازدهر هذا الفن فى مصر زمن الدولة الفاطمية ، وكان فى تلك المرحلة يرتبط بالنصائح والحكم والتعليم . خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص 18 ـ 19

([99]) الفنون الشعبية لرشدى صالح : ص 60 ، واختلف العلماء حول الموطن الأصلى لخيال الظل ، فذهب كثيرون إلى أن الهند هى موطنه الأصلى ، بدليل مأخوذ من بعض النصوص السنسكريتية لأغانى الراهبات ، وفيه إشارة إلى خيال الظل ، ودليل آخر مأخوذ من صفة تتعلق بالمواد التى يتوسل بها فى أداء فن خيال الظل بجزيرة جاوه ، وأن صاحب الصناعة فى تلك الديار كان يستخدم موادًّا هندية ، ومعنى ذلك أن الهند لابد وأن تكون الأصل لهذا الفن .خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص 13ـ 14، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال للدكتور إبراهيم حمادة : ص 34 ـ 35 ، 38 ـ42

([100]) خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص 51 ، 59 ، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال للدكتور إبراهيم حمادة : ص 92 ـ 100

([101]) المعجم المفصل فى الأدب للدكتور محمد التونجى : ص 703 ، وكان قد التبس الأمر على كثير من الباحثين عند التعرض لخيال الظل التركى ، وخلطوا بينه وبين القراقوز أو الأراجوز ، بينما هما فنان منفصلان تاريخيًّا وشكليًّا . خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال للدكتور إبراهيم حمادة : ص 62

وبالرغم مما كان يواجهه أصحاب هذا الفن من اضطهاد كثير من سلاطين المماليك حتى إن السلطان جقمق أمر سنة 855هـ بإبطال اللعب بخيال الظل ، وإحراق شخوصه ، إلا أن هذا الفن ذاع وانتشر وأصبح له رواده المحبين له ، حتى سيطرة الدولة العلية العثمانية على مصر وبلاد الشام ، فزاد انتشار هذا الفن فى طول البلاد وعرضها نظرًا لحب السلاطين العثمانيين لهذا الفن وتشجيعهم له فى طول البلاد وعرضها ، فها هو السلطان سليم الأول قد شجع هذا الفن عندما أنعم على المخايل الذى عرض عليه فن خيال الظل وروى قصة السلطان المملوكى طومان باى بعد شنقه ([102]) .

وازداد حب العثمانيين لخيال الظل مع مرور الأيام ، فيروى أن السلطان مراد الثالث بن سليم الثانى (1574 ــ 1594) أقام حفلاً كبيرًا يوم ختان ولده ، ودعا إليه كبار رجال الدولة ووجهاءها وأعيانها ؛ ليشاهدوا أحد المخايلين المهرة وهو يعرض تمثيليات خيال الظل ([103]) .

وفى سنة 1012هـ = 1612م ، تكونت فى القاهرة فرقة من المخايلين برياسة داود المناوى العطار ، وسافرت هذه الفرقة إلى اسطانبول لإحياء حفلات زواج الوزير التركى محمد باشا السابع بابنة السلطان أحمد الأول ، وبعد اللعب أبدى السلطان أحمد إعجابه لداود المناوى العطار بلعبه وأعماله ، وأجزل له العطاء ([104]) .

وكان السلطان مراد الرابع بن السلطان أحمد (1623 ــ 1640) يؤثر مخايلاً بعطفه ويستعرض رواياته مرتين كل أسبوع ، وكان هذا المخايل واسع الثقافة والاطلاع ، متقنًا للغة الفارسية والعربية ، ومختلف الفنون الموسيقية" أما السلطان إبراهيم بن أحمد فكان فاسقًا عربيدًا عبدًا للذاته الحسية ومغرمًا بمعاشرة أصحاب اللهو والتسلية حتى ليقال أنه أعجب بعروض مخايل ماهر فعينه فى منصب رفيع يتنافس عليه كبار رجالات السلطنة ، وقد ألمح بعض السياح الأجانب أثناء جولاتهم بالبلاد التركية فى القرن السابع عشر إلى أن السلاطين والأمراء كانوا يتمسكون بلعبة خيال الظل فى أحفالهم الخاصة "([105]) .

([102]) خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص 22 ــ 24 ، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال للدكتور إبراهيم حمادة : ص 63 ــ 64

([103]) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال لإبراهيم حمادة : ص 67

([104])المصدر السابق: ص 67 ، خيال الظل لعبد الحميد يونس : ص 84

([105]) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال للدكتور إبراهيم حمادة : ص 67 ــ 68

وكانت تمثيليات خيال الظل تمتاز بكثرة الغزل والشكوى من فراق الحبيب، ونداء الليل، والوعظ والإرشاد ومكارم الأخلاق ، وكثرة الهزل والخلاعة والمجون والكلام الفاحش ([106]) ، وخاصة فى تمثيليات ابن دانيال التى كانت تعتمد على المجون والفحش والانحراف ، واتسمت بالفكاهة والنقد ، وارتبطت فى الوقت نفسه بصور الحياة المصرية فى مواسمها وأماكن تجمعها ، وعكست بعضها مشاهد من تاريخها ([107]) .

أما فى العصر العثمانى فقد كانت أكبر مجموعة تحدثت عن فن خيال الظل فى العصر العثمانى وتمثيلياته مجموعة فى كتاب عنوانه "الروض الوضاح فى نهاية الأفراح المسمى باجتماع الشمل فى فن خيال الظل" ، لمؤلف مجهول ، وذلك بالرغم من أن الكتاب من أوله إلى نهايته يتحدث عن أزجال وتمثيليات فن خيال الظل للشيخ سعود ، والشيخ على النحلة ، والشيخ داود المناوى العطار. ومن أسلوبها يظهر مدى اختلاف أسلوب فن خيال الظل فى العصر العثمانى عنه فى العصر المملوكى ، وخاصة فى فن خيال الظل عند ابن دانيال ، فقد انتقل شعراء العصر العثمانى بفن خيال الظل من المجون والفحش فى القول إلى التخفف من هذا الأسلوب الفاحش ، وتبدأ هذه التمثيليات بمدح رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر الخلفاء الراشدين ، رضى الله عنهم أجمعين ، والصحابة ، وتصوير مشاكل الناس واستغاثتهم بالأنبياء والمرسلين والأولياء ([108]).

ويدور الكتاب حول تمثيلية تسمى : " فلاح فى بطن تمساح " وتسمى أيضًا تمثيلية " لعبة التمساح " ، وهى تصور حالة الفلاح المصرى فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، السابع عشر الميلادى ، وهى تنسب إلى الشيخ سعود ، والشيخ على النحلة ، وداود المناوى العطار ، كما ينسب إلى هؤلاء الأعلام تمثيلية أخرى من تمثيليات خيال الظل ، هى تمثيلية "حرب العجم"، أو " لعبة المنار " ([109])

([106]) الأدب المصرى فى العصر العثمانى لمحمد سيد كيلانى : ص 199

([107]) خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص 82

([108]) الأدب المصرى فى العصر العثمانى لمحمد سيد كيلانى : ص 199

([109]) أرجع بعض العلماء تاريخ تأليف هذه التمثيلية إلى القرنين السادس والسابع الهجريين ، الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، ولكن نظرًا لبدء التمثيلية باسم الشيخ سعود يرجح البعض أنه هو الذى نظمها أو ألفها مع زميليه . انظر : خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس : ص 90 ــ 91 ، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال للدكتور إبراهيم حمادة : ص 46

، وهى تمثيلية تحمل تطورًا وشكلاً مغايرًا لتمثيليات ابن دانيال الشهيرة ؛ لأن هذه التمثيلية تعكس موقف العرب والمسلمين من الحروب الصليبية ، وأنها تؤثر الجد على الهزل عند ابن دانيال ، وتوحد الصف المسلم والعربى أمام الصليبيين ، وتعرض لفضيلة الجهاد ، وتتغنى بالنصر ، أما تمثيليات ابن دانيال فتعرض لمناقرة الديكة ، وتناطح الخراف ، ومصارعة الثيران ، وتستعرض الانحراف الأخلاقى ، وبها كثير من الألفاظ السوقية النابية عن الأخلاق السوية ، كما لا تعتمد مسرحية لعبة الفنار على إظهار البراعة فى الفكاهة ، وإثارة الضحك بقدر ما تعتمد على تصوير البحر والمنار والقلعة والسفن ، والحروب على الصليبيين والانتصار عليهم .

الأمثال والفكاهة :

وكذلك ورد كثير من الأمثال العامية الشعبية فى العصر العثمانى خلال كتاب نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبى ، وكان المحبى قد ذكر هذه الأمثال العامية استشهادًا بها على رأى أهل الأدب بأن نجاح الأمور وسعادتها ونحوستها وخيبتها بأوائلها ، مع عدم إقراره بصحة هذا الرأى لا علما ولا شرعًا : ومن هذه الأمثال قولهم : " الديك الفصيح من البيضة يصيح ". وقولهم: " لو أراد يسعدنى أيش كان يقعدنى ". وقولهم :"ليلة العيد من العصر ما تخفى". وقولهم: " الليلة المضية تبان من عشية". وقولهم :" اليوم المبارك من أوله يبين"([110]).

وقولهم :" كالدمل يطلع فى أضيق المواضع " ، وهو مثل يضرب لمن يجىء فى غير محله ، فأخذه بدر الدين بن الأزهر الشاعر وقال :

شَكَا إلَىَّ مَنْ أحِبُّ دملاً فِى رِدْفِهِ وقالَ قول حاذِع
يطلع فِى كُلِّ فقلتُ ذَا فِى أوْسَعِ
مكانٍ ضَيِّقِ المواضِعِ .

.

([110]) نفحة الريحانة للمحبى : 2/ 203 ، ولعل الحركة الإيقاعية التى تنتج عن الوزن والقافية لهذه الأمثال ، هو أهم ما يميزها عن غيرها ، ذلك الوزن الذى يصنع الشكل اللغوى المقفل ، كما فى قولهم أيضًا : " قصصى طيرك، لا يلوف بغيرك " وقولهم :" العبد فى التفكير ، والرب فى التدبير "أشكال التعبير فى الأدب الشعبى للدكتورة نبيلة إبراهيم : 169 .

وضمن هذا المثل فى معنى آخر فقال :

لقدْ عثَــرْتُ بِجُــنَحِ اللَّيْــلِ رجــل علَى شَــخْصٍ ولَــمْ يَــكُ فِــى حِسَــابِى
فَقَــالَ مُجَاوِبًــا لِــــــــى أنــتَ فقلْــــــــــــتُ : نَعــــــــــمْ ودَوَّاسِ
أعمَى ؟!! . الكــــــــــــــــــــــــــلابِ([111])

.

المجون والفكاهة :

ولا تخفى الصلة بين اللهو والمجون فى الأدب وبين السخرية والهجاء الذى يعتمد على الفحش فى الألفاظ والمعانى الجنسية القبيحة التى ظهرت فى شعر ابن الغزال فى هجاء إسماعيل بن الجرشى ، والذى صوره بصورة شديدة السخرية فى قوله :

يَــــزْعُمُ أنِّــــى بِــــالهجْوِ أذْكُــــرُهُ تَعَصُّــــبًا مِنْــــهُ سَــــاعَةَ الغَضَــــبِ
لَكِنَّنِــــى وَالطِّــــلاَق يَلْزَمنِــــى مَا مِلْــتُ فِيــهِ يَوْمًــا إلى الكَــذِبِ ([112])

. .

كما كان هناك الكثير من الأدباء ممن اشتهر عنهم كثرة مزاحهم ولهوهم ومجونهم فى حديثهم، ومن أشهر هؤلاء فى العصر العثمانى الجنيد الدمشقى الذى اشتهر بهزلياته النثرية([**113**]). وقيل حضر الأكرمى سماطًا وأمامه الجنيد فبالغ فى النهمة ، وكان فى المجلس بعض الأدباء فأنشد قول أبى محمد القزوينى الضرير فى رجل أكول :

وصاحب لى بطنه كالهاوية كأن فى أمعائه معاوية([**114**])

([111]) ريحانة الألبا لشهاب الدين الخفاجى : ص: 266 ــ 267 ، وتتميز هذه الأمثال بأخذها لشكل الحكاية ، كما فى قولهم ضربوا الأعور على عينه ، قال : خسرانه خسرانه . أشكال التعبير فى الأدب الشعبى للدكتورة نبيلة إبراهيم : 170

([112]) خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 47

([113]) خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 494

([114]) خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 491 ــ 492 ، وذكر والد المحبى أن هذا البيت ذكر فى يتيمة الثعالبى ، واستجاد لفظه ووقوع الأمعاء إلى جنب معاوية لمزية ثالثة ، وهى كون الذى أنشد فيه من نسل معاوية .

ومن هؤلاء أيضًا : البوريني الذى كان يميل إلى غلام ، فجاءه مرة ، ثم جاءه معتذرًا بإشارة خفية من جفنيه ، فأنشده بديهة قول ابن الفارض :

رَمَـــــــى فَأَثْبَـــتَ سَـــهْمًا مِـــنْ فى وَسَطِ قَلْـبى فَوَاشَـوْقى إلى الرَّامِـى
لَوَاحِظِهِ . (115) .

وكان الأدباء يتخذون من الأمور البسيطة سبيلاً إلى اللهو والضحك ، كما كتب زين الدين بن أحمد بن على بن الحسين بن على الشافعى الحلبى ، المعروف بالإشعاف إلى أحد أصحابه يعزيه فى ضياع نعله :

تعزَّ أخِـى إنْ كُنْـتَ مِمَّـنْ لَـهُ عَقْـلُ ولا تُبـدِ أحْزَانًـا إذَا ذَهَبَـتْ نَعْـلُ
ولا تَعْتِـب الـدَّهْرَ الخـؤُونَ فَدَأبُـهُ لِعَقْـد اجْتِمَـاعِ الشَّـملِ دون الـورى
لَحَـى اللهُ دَهْـرًا لا يَـزَال مُولَعًـا حـلٌّ بِتَكْـدِيرِ صَـفْوِ
يُفَـرِّقُ حَتَّـى شَـمْلَ رِجْـلٍ ونَعْلِهَـا العَـيْشِ مِمَّـنْ لَـهَ فَضْـلُ
فَمَا شِئْتَ فاصْـنَعْ مـا اللَّبِيـبُ بِجَـاذِعِ أشَـدّ فِـرَاقٍ لا يُـرَى بَعْـدَهُ شَمَـلُ
بِحَقِّـكَ قُـمْ نَسْعَـى إلى الـرَّاحِ ولا تـارك صـفوًا ولـو زلـت النَّعْـلُ
سَحَرَةً . نُجَـدِّدُ أفْرَاحًـا لِكُـلِّ صَـدًا تَجْلُـو
(116) .

ويروى لنا الخال الطالوى قصة فكاهية طويلة عن ضياع قط مستأنس لصديق له فيقول: " وكان لصاحبنا الشيخ حسن المعروف بالكمر قطٌّ ، وكان عزيزًا عليه ، مقبولاً لديه ، فكان من قضاء الله وقدره أن ذلك القط هلك إلى لعنة الله تعالى ، وكان اسمه سنبل ، فجزع عليه جزعًا عظيمًا ، وبكى عليه بكاءً شديدًا ، وغسَّله وكفَّنه ، وحفر له فى كنيف ، ودفنه فيه ، وجلس فى الخلوة للتعزية ، فلما لم يأت إليه أحد خرج بعد ثلاثة أيام ، فاجتمعنا به فى مجلس رجل جليل القدر ، فأخذ يحدثنا : كيف كانت موتته ، وكيف مات، وكيف غسله وكفنه ودفنه فى الكنيف ، وجعل يبكى وهو يحدثنا ، فأمرنا رب المجلس أن أصنع له مرثية ، فعملت هذه القصيدة ، وهى هذه الأبيات :

---

(115) خلاصة الأثر للمحبى : 2 / 54

(116) خلاصة الأثر للمحبى : 2 / 190

يَــا مَــنْ بَكَــى لَمَّــا أُصِــيبَ بِهِــرِّهِ مَــا أنــتَ أولُ مَــنْ رُمِــىْ فى دهْــرِهِ
خفِّــضْ عليــكَ فإنَّــهُ دهــرٌ إذا أسْــقَاكَ حلــوًا جــاءَ بعــدُ بِمُــرِّهِ
مَهْــلاً فــإنِّى قــدْ عهــدتُكَ صــابرًا رجــلاً يفُــوقُ علــى الأنَــامِ بِصَــبْرِهِ
لك أسْوَةٌ فــيمَنْ أُصــيبَ علــى التَّقــى فِــى حالِــهِ وجَمَالِــهِ مــع مَهْــرِهِ([117])

ويروى الخال الطالوى قصة أخرى عن الشال المسروقة ، وكان صديقه الشيخ محمد بن ناصر المعروف بشليف قد سرقت شاله وهو فى إحدى حلقات الذكر ، فقال الخال الطالوى:

تحمَّــلْ مــا اسْــتَطَعْتَ مِــنَ الخَسَــارهْ لأنَّــكَ عــارِفٌ ولَــكَ البِشَــارهْ
يمِــينُ اللِّــصِّ شُــلَّتْ حــينَ شــالتْ لِشَــالِكَ قــدْ وقَفْــتُ علــى العِبَــارَهْ
أتــدْرِى حــينَ مولانَــا افتَرَقْنَــا ورُحْــتُ وقــد دخلْــتَ إلى الطَّهَــارهْ
ترَكْتُــكَ ثُــمَّ رُحْــتُ علــى الهُوَيْنَــا أجــوزُ بحــارةٍ مِــنْ بعــدِ حــارَهْ
فمــا إنْ صِــرْتُ تحــتَ القَبــوِ حتَّــى رأيــتُ ســوادَةً فى شــبهِ كــارَهْ ([118])

واتخذ الشعراء من بعض العيوب الخلقية سبيلاً إلى الضحك والفكاهة والمجون ، فيروى المحبى أن أبا بكر العمرى كان جالسًا بالمكان المعد لبيع القهوة المسماة بالقهوة الجديدة ، تحت قلعة دمشق ، وإلى جانبه الشمسى محمد ابن عين الملك ، وإذا بغلام بديع الجمال بارع فى الحسن والكمال جلس بالقرب منا ، فأخذنا نتأمله ونتواصف محاسنه ولطف شمائله ، وإذا برجل طويل من الناس ، غليظ يكاد يكون جدارًا ، فجلس بإزائنا وحال بيننا وبين رؤية الغلام ، فحصل لنا غم شديد ، فقال ابن عين الملك : الغلام هو القمر ، وهذا الغليظ هو الخسوف ؛ لأنه حجب عنا رؤيته ، فبينا نحن فى تلك المصاحبة وإذا بالرجل نــزع عمامته فإذا هو أقرع وكأن رأسه قطعة من النحاس ، فقلت للشمس محمد الآن صح تشبيهك . فقال : إذا يجوز أن تنظم هذا المعنى ، فأخذت القلم وكتبت ارتجالاً :

حَجَــبَ البَــدْرُ أقْــرَعَ عَــنْ عُيُــونِى فَغَــدَا الطَّــرْفُ خَاسِــئًا مَطْرُوقًــا

([117]) تاريخ الأدب العربى (العصر العثمانى) للدكتور عمر موسى باشا : ص 450 ــ 451
([118]) تاريخ الأدب العربى (العصر العثمانى) للدكتور عمر موسى باشا : ص 454 ــ 455

قَـــالَ لِـــىَ اللائِمـــونَ كُـــفَّ فَنَادَيْـــ ـــــتُ دَعُـــونِى وأَقْصِـــرُوا التَّعْنِيفَـــا
عَـــادَةُ البَـــدْرِ يَنْجَلِـــى لَيْلَـــةَ الخسْـــ ـــــفِ بـــدَقِّ النَّحَّـــاسِ دقًّـــا عَنِيفَـــا
وَتَـــرَاءَيْت طَاسَـــةً فَجَعَلْـــتُ الصَّفْـــ ـــــعَ دَقًّـــا فَـــكَانَ عُـــذْرًا لَطِيفَـــا
. (119) .

كما اتخذوا من الغلمان مادة جيدة للهو فها هو عبد الكريم الطارانى قد جلس وإلى جانبه غلام ، كالقمر فى ليل التمام ، فقال له : انظر البدر أمامك . فقال له : أمامى على أى حالة . فخجل لما قاله . فأنشده بديهًا :

وذِى قـــــوامٍ رشِـــــيقٍ دنَـــــا لِبَـــــدْرِ التَّمَـــــامِ
فقـــــال والثَّغْـــــرُ منْـــــهُ حـــــال بِحُسْـــــنِ ابْتِسَـــــامِ
غـــــدًا أمامَـــــكَ بـــــدْرٌ فقلـــــتُ بَـــــدْرِى أمَـــــامِى(120)
. .

أما مادة اللهو والمجون والإغراق فى الضحك فقد كانت التعبيرات الجنسية الصريحة أو التى غُلِّفَتْ بالتورية ، ومن ذلك أن شهاب الدين الخفاجى كتب يومًا لأحد المغاربة وكان يقول بالظباء : " مذهَبُ مولاىَ تقديمُ الذكور على الإناث ، وتطليقُ حُورِ الجنان بالثَّلاث ، لأن الرجل خيرٌ من المرأة بالاتفاق ، فلذا تخلَّف عن الخلاف(121) ، وتقدَّم حيث الشِّقاق ، كما قلت له أولاً :

أديـــبٌ مَـــالَ عـــن حُـــبِّ الغَـــوانِى وبِالأحْـــدَاثِ أصـــبَحَ ذا اكتِـــراثِ
وقـــال اختَـــارَ ذا أهـــلُ المَعَـــانِى فغَلَّبَـــتِ الـــذُكُورَ علـــى الإنـــاثِ(122)
. .

ويتماجن طرز الريحان فى دعوته لأحد أصدقائه القدامى إلى الزيارة ، وطلب منه ألا يخاف من القتل أو التشليح ، وما خفى كان أعظم :

---

(119) خلاصة الأثر للمحبى : 3 / 235 ــ 236
(120) المصدر السابق: 1 / 386
(121) الخلاف : نوع من الطيب ، ومن أعظم أجزائه الزعفران .
(122) نفحة الريحانة للمحبى : 4 / 405 ــ 406

ألا قُـــلْ لمـــن أبـــدَى اعتِـــذَارًا وقـــد أبى زِيارتَنَـــا والرَّيْـــبُ فى ذلـــك العُـــذْرِ
عليـــكَ أمـــانُ الله مـــا دُمْـــتَ عنـــدنا مـــن القتـــلِ والتَّشْـــلِيحِ ثم لا أدْرِى(123)

ويقول محمد بن نور الدين المعروف بابن الدَّرَّا المتوفى سنة (1065هـ = 1656م) فى صاحب له قد أغرم بمساعدة أهل الهوى والمجون على هواهم ومجونهم :

بنَا صـــاحِبٌ مُغْـــرًى بعـــوْنِ ذَوِى الهـــوَى يُشَـــارِكُهُمْ فى وَجْـــدِهِمْ والتَّوَلُّـــهِ
إذا عـــزَّ أن يلْقَـــى مُحِبًّـــا رَقَـــى علـــى الشَّـــواهِقِ يسْـــتَقْرِ دُخَـــانَ التَّـــأَوُّهِ(124)

الألغاز والفكاهة :

وترتبط الألغاز بالفكاهة ؛ لأن الألغاز باب من أبواب السمر والفكاهة ؛ فعندما تسمر جماعة من الجماعات ، وتتبادل الألغاز والفوازير ، ومن خلالها يتم الكشف عن غباء الإنسان العادى بقصد خلق جو من السخرية والمرح (125) ، والدعابة التى تحملها الألغاز دعابة تحتاج إلى

إعمال الفكر وإجهاده فى صياغتها صياغة دقيقة فنية تتوسط بين الوضوح والإبهام والتصريح والتلميح ، ثم فى حل رموزها وأسرارها بالاعتماد على الذكاء والذاكرة والثقافة "(126) .

كان لانتشار الألغاز فى أوساط المجتمع المختلفة أثره الواضح فى اللغة التى تروى بها هذه الألغاز ، فإذا كان اللغز يوجه من شخص لآخر على سبيل الامتحان ، ليرى ما إذا كان هذا الشخص يفهم لغة

(123) المصدر السابق: 1 / 271
(124) المصدر السابق: 1 / 231
(125) مثل فزورة الكتابة " قد السمسمة وتجيب الخيل ملجمة" ، ولغز البيض " طبق رخام عليه زعفران حلف ما يتاكل إلا بالكلام" ، أو لغز الترمسة " جيت آكلها قلعت قميصها . انظر : أشكال التعبير للدكتورة نبيلة إبراهيم، ص 189
(126) الحركة الشعرية زمن المماليك فى حلب الشهباء : للدكتور أحمد فوزى الهيب : ص 353

هذه الجماعة ، فإن لغة هذه الألغاز قد تعددت بتعدد هذه الجماعات ، لأن كل جماعة تستخدم لغة خاصة بها ، فجماعة الصيادين مثلاً لهم لغتهم الخاصة بهم ، وكذلك جماعة اللصوص ، وجماعة الحكماء لها لغتها التى تتسم بالغرابة ، وإلاَّ كانت ملكًا مشاعًا للجميع، وعلى هذا فإن اللغز يستخدم اللغة الغريبة فى مقابل استخدام الإنسان العادى للغة العادية ([127]) .

وعلى هذا يمكن تحديد أنواع الألغاز بـــ : الألغاز اللفظية واللغوية، والألغاز الفقهية ، والألغاز النحوية ، والألغاز الفرضية ، والألغاز الحسابية (التاريخ الكنائى ، والألغاز الأدبية ، والألغاز الصوفية التى يمتحن بها الشيخ مريديه ([128]) ، ومنها ما يسأل عن شىء أو كلمة ([129])، وقد يلغز فى اسم ويأتى اللغز بما يطابق صورة أحرفه فى الرسم من الأشياء ، وهو نادر جدًّا

وأما الألغاز الأدبية فتنقسم إلى نوعين ، الأول : ألغاز الخاصة التى أبدعها الشعراء والأدباء المعروفون ، وحظيت بعناية الكتاب فدونوها فى كتب الشعر والأدب والبلاغة ، وقام بدراستها علماء البلاغة والبيان والبديع .أما القسم الآخر فهو الألغاز الشعبية التى قالها عامة الناس ؛ وذاع انتشارها فى البيئات العربية بين الخاصة والعامة ، ولا يفترق أحدهما عن الآخر إلا فى السمات اللغوية والفنية ، وفى مستويات المتلقى أيضًا([130]) . وأصبح لها تأثيرها الكبير فى الأوساط الشعبية إلى درجة أنها لم تعد تروى مفردة فحسب ، وإنما داخل الحكاية الشعبية والخرافية ، وكان لها دورها الكبير فى تركيب تلك الحكايات ، وفى هذه الحالة لا يروى اللغز بوصفه سؤالاً محيرًا يتطلب إجابة صائبة يعرفها السائل من قبل ، وإنما يكون كذلك فى صورة مسألة محيرة تتطلب التفسير ([131]) .

([127]) انظر : أشكال التعبير للدكتورة نبيلة إبراهيم ، ص 196 ، وذكر البعض أن من هناك ألغازًا قصدها العرب، وألغازًا قصدها أئمة اللغة ، وأبياتًا لم تقصد العرب الإلغاز بها ، وإنما قالتها فصادف أن تكون ألغازًا ، وهى نوعان : فإنها تارة يقع الإلغاز بها من حيث معانيها ، وسموا هذا النوع أبيات المعانى لأنها تحتاج إلى أن يُسْأل عن معانيها ، ولا تُفهم من أول وهلة . انظر : تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعى : 3 / 403، 404

([128]) من فنون الأدب الشعبى فى التراث العربى للدكتور محمد رجب النجار : 177/1 ــ 178

([129]) الحركة الشعرية زمن المماليك فى حلب الشهباء : للدكتور أحمد فوزى الهيب : ص 354

([130]) من فنون الأدب الشعبى فى التراث العربى للدكتور محمد رجب النجار : 180/1 ــ 181

([131])والباعث على خلق اللغز هو الاختبار الذى يتعرض له المسئول؛ لأن اللغز يحتاج إلى عدة عناصر ، السائل، والمسئول ، فالسائل يطرح اللغز وهو يعرف الإجابة ، والمسئول على يقين من ذلك ، ومع هذا فإن السائل لا ينطق

ولما كانت الألغاز تعد من أخفى الإشارات ؛ لأننا نرى فيها للكلام ظاهرًا غير ممكن فإذا أعملنا الفكر وأمعنا النظر وجدنا له باطنًا ممكنًا ، كانت مجالاً يتبارى فيها الأدباء ويتراسلون بها ، وانتشرت وذاعت وصارت فنًّا لم يخل منه ديوان من دواوين الأدب العربى ([132]) ، وبعد أن كانت الألغاز تلقى مباشرة من السائل إلى المسئول ، دخلت فى العصور المتأخرة ، وبخاصة فى العصرين المملوكى ، والعصر العثمانى ، إلى فن المراسلات الإخوانية ، مع احتفاظها بجانب الفكاهة والدعابة والبراعة فى صياغتها ونظمها ، فها هو محمد بن يوسف الكربمى يكتب إلى أخيه أكمل الدين ملغزًا فى أكتع :

يـــا أكْمَـــلاً يَسْـــتَكْمِلُ الظَّرْفَـــا ... يَـــا فاضـــلاً والفَضْـــلُ لا يَخْفَـــى
ويـــا شـــقيقى مـــن فَخَـــارِى بـــه ... ومـــن غـــدا لى فى الـــورى طَرْفَـــا
أَكْمَـــلُ منـــه إن أصِـــفْهُ فَلِـــى ... أرْجَـــعَ مِـــنْ أوْصَـــافِهِ الوَصْـــفَا
قـــل لى عـــن وصْـــفٍ حُـــرُوفٌ لـــه ... أرْبَعَـــةٌ مـــا نَقَصَـــتْ حَرْفَـــا
إذا وصـــفت الشَّـــخْصَ يَومًـــا بـــه ... فعَيْنُـــــهُ فى دُبْـــــرِهِ تُلْفَـــــى
و لم يـــزَلْ يَصْـــحَبُ كُلاَّبَـــةً ... بهـــا يجيـــد القَـــبْضَ وَالصَّـــرْفَا
ثانيـــهِ نِصْـــفُ العُشْـــرِ مَـــن ثَالِـــثٍ ... وَكُلُّـــــه لم يبلُـــــغِ الأَلْفَـــــا
يـــنقُصُ عنْهـــا بَـــلْ وعَـــنْ بَعْضِـــها ... و لم تكمِّـــل نَاقِصًـــا حلفَـــا
مَوْصُـــوفُه نِصْـــفَانِ فـــانظُرْ لَـــهُ ... نَصَـــفًا ولا تنْظُـــرْ لـــه نِصْـــفَا
ثَانيـــهِ مَـــعْ ثالِثِـــهِ فِعلُـــه ... مَتَـــى يُشـــاجِر عِرْسَـــهُ عُنْفَـــا
يُظْهِـــرُ فى أفْعَالِـــهِ خِفَّـــةً ... وهْـــوَ لِثِقْـــلٍ لَـــمْ يَغِـــبْ طَرْفَـــا
كـــالبُومِ شُـــؤْمٌ وهـــو إلْـــفٌ لنـــا ... فَهَـــلْ رَأَيْـــتُم بُومَـــةً إلِفَـــا
أجِبْ وعن ذَا الوصْـــفِ أفصـــحْ لنَـــا ... لا ذُقْـــتَ للـــدَّهْرِ إذًا صَـــرْفَا ([133])

.

.

فأجابه أخوه بقصيدة طويلة مطلعها :

بالإجابة عن السؤال إلا بعد أن يبذل فى ذلك جهدًا كبيرًا ، أما إذا عثر على الحل الصحيح فإنه يشعر بحالة اقتناع وثقة بالنفس . أشكال التعبير لنبيلة إبراهيم ، ص 184، 193

([132]) الحركة الشعرية زمن المماليك فى حلب الشهباء : للدكتور أحمد فوزى الهيب : ص 353

([133]) خلاصة الأثر للمحبى : 4 / 277 ، نفحة الريحانة : 1 / 186

جـــاءَتْ فَــزَادَتْ رَوْضَــنَا عَرْفَــا   بَـــلْ قلَّـــدَتْ آذانَنَـــا شُـــنْفَا[134]

وكما سبق أن قلنا فقد دخلت الألغاز مجال المسائل الفقهية وأكثر النحاة والقضاة والفقهاء وأهل الفرائض ومن ينتحلون الحكم والفلسفة منها ، ومما يلاحظ على هذه الألغاز أن الفن أغلب عليها [135] . ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه بعض الفقهاء إلى أبى بكر العمرى ملغزًا :

مـــــآنِ

مـــُــنــــْفــــ

ـــَرــــدَانِ

كُــــلّ

مـــْـ

ـهُمــ

ـَا

كُـ

ـلٌّ

طَهُـ

ورٍ

وَحْدـ

ـَهُ حَتَّى إذَا

يَجْرِى بالاسْـتِعْمَالِ فِـى الـتَّطْهِيرِ

جُمِعَا يَعُــودُ الكُــلُّ غَيْــرَ طَهُــورِ

(134) خلاصة الأثر للمحبى : 4 / 277 ــ 278 ، نفحة الريحانة : 1 / 187ــ 188

(135) تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعى : 3 / 406 ــ 407

فأجابه بقوله :

مَـــاءٌ تَغَيَّـــرَ فِـــى المَمَـــرِّ أو المقَـــرِّ يَجُـــوزُ مِنْـــهُ الأخْـــذُ للـــتَّطْهِيرِ
وإذا خلطت بِهِ الطهـــور وقـــدْ نَمَـــا التَّغْـــيِيرُ عَـــادَ الكُـــلُّ غَـــير طَهُـــورِ

.

وكذلك كان للنحاة ألغازهم الرائعة والتى كانوا يتداولونها فيما بينهم ، ومن ذلك ذلك اللغز الذى أرسل إلى نجم الدين الحلفاوى الأنصارى الحلبى المتوفى سنة (1054 هـــ = 1644م) ، وفيه سؤال نحوى قال فيه ([136]).

وكان أكثر شعر عبد الله بن عبد الرحمن بن على الدنوشرى المتوفى سنة (1025 هـــ = 1616م) ، فى نظم المسائل النحوية فى ألغاز رائعة ([137])

وبالغ بعض شعراء العصر العثمانى فى فن الألغاز حتى أدخلوها فى فن الغزل ، كما فعل أحمد بن زين العابدين البكرى ، المتوفى سنة (1048هـــ = 1638م) ، فى قوله ملغزًا :

غَزالـــــةٌ فى بُرْدِهَـــــا رافِلَـــــةْ تقتـــنصُ الأُسْـــدُ مـــن القافلـــةْ
فى حَـــرَمِ الأمْـــنِ وقـــد خِلْتُهَـــا قائمـــــةً بـــــالفرضِ وبالنَّافلـــــةْ
قُلتُ لهـــا رِفِّـــى . فقالـــت : لمـــنْ كأنهـــــا عـــــن مطْلَـــبى غَافلـــــةْ
ثم انثنـــــتْ تُلْغـــــزُ لى باسمِهَـــــا لُغْـــــزًا بـــــه أفكارُنَـــــا كافلـــــةْ
مـــــا اســـمٌ خماسِـــيٌّ وتصـــحيفُه شِـــبْهُ بُـــدورٍ لم تكـــنْ آفلـــةْ
فى سُـــنَّةِ المختـــارِ خـــيرِ الـــورَى بيانُـــــه وهْـــــى لـــــه شـــــاملةْ
فى سِـــــنَةٍ نَبَّـــــهَ مُســـــتيقظًا وإن تَشَـــا فى سَـــنَةٍ كاملَـــةْ ([138])

.

خاتمة :

من دراسة الفكاهة فى الأدب العربى فى العصر العثمانى يتبين لنا عدة أمور :

([136]) خلاصة الأثر للمحبى : 4 / 181 ــ 182

([137]) خلاصة الأثر للمحبى : 3 / 53

([138]) نفحة الريحانة للمحبى : 4 / 481 ، خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 203

1. تعتبر مادة الفكاهة فى تلك المرحلة امتدادًا واضحا لما كان قبلها من فكاهة فى عصور سابقة وبخاصة فى العصر المملوكى ، فعندما ظهر خيال الظل فى الأدب المملوكى استمر وجوده فى العصر العثمانى مع كثير من التطوير .

2. كانت موضوعات الفكاهة مشتركة بين الأدب العربى فى العصر العثمانى وما قبله من عصور ، ومن ذلك الضحك من الأصوات والأشكال والطعام والشراب وهكذا .

3. كانت اللغة العامية شكلا من أشكال الضحك والفكاهة فى العصر العثمانى .

4. كما كانت اللغة العربية الفصحى والتصحيف فيها وفى النحو العربى لونًا من ألوان الفكاهة فى تلك الفترة .

5. دخلت أنواع جديدة على الفكاهة فى العصر العثمانى مثل الألغاز والأحاجى والمواويل والمسرحيات الفكاهية وبخاصة فى نهاية العصر العثمانى والتى كانت غالبًا باللغة العامية .

ومن أهم المصادر والمراجع :

أولاً أهم المصادر :

1. ـــ شهاب الدين الخفاجى : ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، طبعة عيسى البابى الحلبى ، الطبعة الأولى ، 1386 هـــ = 1967م.

2. العاملى (بهاء الدين) : الكشكول ، تحقيق : الطاهر أحمد الزاوى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 1998م .

3. المحبى (محمد أمين) : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، طبعة مصر ، 1284 هـــ .

4. المحبى (محمد أمين) : نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ،طبع بدار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى 1387هـــ = 1969 م .

5. المحبى (محمد أمين) : ذيل نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ،طبع بدار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى 1387هـــ = 1969 م .

ثانيًا : أهم المراجع :

1. إبراهيم حمادة : خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال (دراسة وتحقيق) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، مصر ، 1963م .

2. أحمد صادق الجمال : الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1386هـ = 1966م .

3. جمال عبد الغفار إبراهيم بدوى : المضحك وتطوره فى النثر العباسى حتى نهاية القرن الرابع ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، 2001م .

4. سها عبد الستار السطوحى - السخرية فى الأدب العربى الحديث (عبد العزيز البشرى نموذجًا) – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – 2007 م .

5. شوقى ضيف : الفكاهة فى مصر – سلسلة اقرأ – دار المعارف – القاهرة – عدد 511 – الطبعة الثالثة .

6. شوقى ضيف : الجزيرة ، الشام ، دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ.

7. شوقى ضيف : عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ.

8. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، 1990م .

9. عبد العزيز الأهوانى : الزجل فى الأندلس ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 2002م .

10.عبد المجيد قطامش : الأمثال العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ، رسالة دكتوراه بدار العلوم ، 1975م .

11.عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربى (العصر العثمانى) ، دار الفكر للطباعة والتوزيع ، دمشق ، 1989م .

12.كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (العصر العثمانى) ، القسم الثامن ، ترجمة :محمود فهمى حجازى ، وعمر صابر عبد الجليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1995م .

محمد زكريا عنانى : الموشحات الأندلسية ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد 31 ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، **الكويت ، شعبان / رمضان** 1400 هـ = يوليه 1980م